ماذا خسر المسلمون بسقوط



دراسة في فلسفة قضية القدس

الدكتور
عبدالله معروف عمر

الفرسان
للنشر والتوزيع

الكتـــــــاب	ماذا خسر المسلمون بسقوط بيت المقدس؟
المؤلـــــــــف	الدكتور عبد الله معروف عمر
التصميم والإخراج	مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الإشراف العـــام	م. حســـــن صالـــح



الطبعة الأولى

2018م - 1439هـ

9789957640125 ISBN

رقم الإيداع 2017/12/6234

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

Jordan - Amman - Abdaly	الأردن - عمان - العبدلي
Tel. +962 6 560 73 87	هاتف : ٩٦٢+ ٦ ٥٦٠ ٧٣٨٦
Fax. +962 6 565 53 70	فاكس : ٩٦٢+ ٦ ٥٦٦ ٣٤٧٠
P.O.Box 240664 Amman 11124 Jordan	ص.ب ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

E-mail: alfursan111@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيد العالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، ومن استن بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

لماذا هذا الكتاب الآن؟

ليس من الصعب أن تحب بيت المقدس أو أن يدعي أحد حبها أو العمل لأجلها، ذلك لأن هذه الأرض اليوم تشهد حالةً إنسانيةً صعبةً عنوانها احتلال أرضٍ وتشريد شعبٍ. لكن كون هذه القضية اليوم قضيةً إنسانية تهز المشاعر لا يعني بحالٍ انتفاء كونها قضيةً ذات أبعادٍ علمية وروحانية وعقلية وتاريخية ودينية كبيرة، فبيت المقدس أرض كانت ولا زالت وستبقى تجتذب الكثير من أبناء الأمم المختلفة نحوها حباً أو طمعاً، ولا زال الكثير من البشر ولا سيما أبناء هذه الأمة لا يملكون ترجمةَ سببٍ مقنعٍ لهذا الاقتتال على هذه الأرض بالذات. فإذا درستَ التاريخ، وجدت هذه البقعة جذبت الملايين من البشر يتصارعون ويتدافعون على ثراها، كل يريدها لنفسه، بالرغم من أنها ليست أخصب بلاد الأرض، ولا أغناها بالثروات، على الأقل من الناحية الظاهرية، فلماذا إذن يقتتل عليها البشر؟ وما هو السر الذي جعل هذه الأرض تشغل هذا الحيز من تفكير أبناء آدم وتشعل فيهم هذه الجذوة؟

هذا السؤال طرحته على نفسي أكثر من مرة، وطُرِحَ أمامي كثيراً في لقاءات وحواراتٍ بعضها ثقافي، وبعضها أكاديمي، وبعضها من قبيل الجدال، وبعضها من نفل الكلام، فلم أجد بين الناس من يستطيع ترجمةَ هذه المشاعر المختلطة في دواخله ليشرح ماذا تعني هذه الأرض، ولم أجد من يشرح سبب الغضب لفقدان هذه البقعة بالذات.

في أحد اللقاءات الطيبة مع أخي العزيز والباحث المتميز الأستاذ زياد إبحيص عام 2013م طرح عليَّ سؤالاً: ما الذي فقدته البشرية وخسرته بسقوط بيت المقدس تحت الاحتلال وخروجها عن يد المسلمين؟ ولماذا يجب أن تكون أصلاً في يد المسلمين. وكان من آثار ذلك اللقاء أن اتفقنا على ضرورة تصنيف مادةٍ تدخل في عمق هذه المسألة ما أمكن بما فتح الله عز وجل، وتعين الباحثين والدارسين لطبيعة هذه الأرض - كما العاملين في قضيتها اليوم - على فهم أسرار هذه البقعة وإدراك معالم الطريق الذي يسيرون فيه وأبعاده.

فقد كانت حصيلة سنواتٍ من دراسة هذه البقعة أن تأكدنا أن أغلب البشر لا يفهم ما تعنيه هذه الأرض، وجزء كبير من أبناء أمتنا لا يعلم تماماً حجم الكارثة التي تسبب فيها خروج هذه الأرض بالذات عن يد هذه الأمة ماضياً وحاضراً، وخطورة دورها مستقبلاً.

ولذلك بدأت منذ ذلك الوقت تصنيف هذا الكتاب الذي بدأته في المدينة المنورة في محرم من عام 1435هـ الموافق لتشرين الثاني من عام 2013م، وأتممت مادته في إسطنبول في محرم من عام 1439هـ الموافق لتشرين الأول من عام 2017م. وضمنته عصارةً ذهنيةً مركزةً لدراسة فلسفة المكان المقدس في الإسلام، وفلسفة دور المناطق المقدسة في مسألة الحضارة التي يعد إحياؤها اليوم مصدر إلهامٍ لكثير من أبناء الأمة. ويبحث هذا الكتاب في مسألة فهم دور بيت المقدس في الحركة الإنسانية، ودورها في تحديد القيادة البشرية وعجلة دوران الحياة على هذه الأرض، وذلك بما حباها الله عز وجل من سماتٍ وخصائص لا يمكن معها تجاهلها أو تناسي خطورتها. وذلك في مسعىً لإخراج فكرة الاهتمام ببيت المقدس من حيز العاطفة المحضة إلى العاطفة الموجهة بالعقل والمنطق والفهم. فإصابة أمتنا اليوم في الفهم كانت مؤلمةً غاية الألم، وكان انعدام الفهم وانتشار التقليد الأعمى أسوأ ما حدث لهذه الأمة على مر تاريخها، ولابد أن يكون الفهم هو أساس عودة هذه الأمة وانبعاث حضارتها من جديد كما كان الأمر أول مرة.

وهذا الكتاب موجه أساساً للدارسين في الفكر الحضاري، والمتعمقين في دراسة بيت المقدس، فالتنظير في هذه القضية أساسٌ للعمل الجاد المستمر. وما ابتليت أرض بيت المقدس اليوم بأشد من متعاطفٍ لا يفهم، ومتعاقلٍ لا يَفقه. فلذلك تجد مادة الكتاب تحاول الغوص في عمق الفكرة لتؤصل لها وتصحح البناء فيها من القواعد، وذلك لزامٌ للعاملين في هذا الحقل، فما بني على أساسٍ صلبٍ كان له من الثبات والارتفاع نصيب كبير، وما بني على أساسٍ هشٍّ سقط مع أول اختبار.

ومنهج الكتاب يعتمد على سلسلةِ الأفكار من الكلام على الأساس في المعتقد الإسلامي حتى الوصول إلى الفكرة الحضارية ودور هذه الأرض في البناء الحضاري لهذه الأمة، وقد جاء في فصول خمسة: ضمنت الأول الكلام عن فلسفة الأماكن المقدسة في الإسلام لنفهم أولاً لماذا كان لابد أن يكون هناك مناطق مقدسة، ويتم في هذا الفصل دراسة تأصيل وجود ثلاثة أماكن مقدسةٍ في الإسلام لا واحداً أو اثنين، وطبيعة شخصية كل أرضٍ من هذه الثلاثة وسبب وجودها وسبب كون هذه شخصيتها.

ثم ننتقل في الفصل الثاني للتركيز على أرض بيت المقدس بتشريح شخصيتها الأساسية من خلال تحليل مفاهيمها الأساسية وعلى رأسها البركة، معناها وأثرها ودورها في صياغة دور هذه الأرض في التاريخ والحضارة البشرية، مع دراسة تجليات هذه الميزة الشخصية لبيت المقدس وأثرها.

أما الفصل الثالث فقد ركز على ربط الجانب الحضاري ببيت المقدس وتحليل دور هذه الأرض في البناء الحضاري للأمة، فجاء فيه دراسةٌ لفكرة الحضارة أصلاً ومعناها الذي نقصده في دراستنا لدور بيت المقدس الحضاري، ومن ثم تعمقنا في فهم دور بيت المقدس في بناء أي حضارةٍ لا سيما حضارة الأمة المسلمة، وسبب كونها معلماً حضارياً أساسياً في طريق النمو والانبعاث الحضاري، وذلك لكي نفهم دورها في انبعاث أمتنا الجديد. كما درس هذا الفصل مسألةً مهمةً وهي فكرة النموذج الحضاري الذي يتعلق بربط الانبعاث الحضاري للأمة المسلمة بتاريخ بيت المقدس، وذلك من خلال تمهيد الطريق لدراسة النماذج الإسلامية التاريخية الحضارية التي مرت على هذه البقعة وكيفية الاستفادة منها في فهم واقع بيت المقدس ومستقبلها ودورها.

وركز الفصل الرابع على تحليل علاقة فكرة التغيير ببيت المقدس، ودرس هذا الفصل نماذج أساسيةً من تاريخ الإنسان عموماً وتاريخ الأمة المسلمة خصوصاً تبين كيف كان التغيير الشامل في الحياة والشخصية والأثر منطلقاً من بيت المقدس، وذلك لفهم دور بيت المقدس في أي تغيير ترغب الأمة المسلمة في إحداثه مستقبلاً في حياتها ودورها وموقعها بين باقي الأمم.

وجاء الفصل الخامس ليدرس مفاهيم نظريةً محددةً من خلالها يتم بناء النموذج الحضاري لبيت المقدس، كالعدل وكيفية التعامل مع الآخر في بيت المقدس من خلال فهم شخصية هذه الأرض كما درست الفصول السابقة. وهذا إنما يأتي لتقعيد قواعد أساسية في رسم مستقبل بيت المقدس وكيفية التعامل معها مستقبلاً، وأثر هذا التعامل مع بيت المقدس ضمن تلك المفاهيم على رسم صورة العالم.

ثم جاءت خاتمة الكتاب التي تضمنت تلخيصاً أساسياً لما احتوى من مفاهيم توصل إلى الفكرة الأساسية من هذه المادة: أن نفهم ماذا خسرنا بفقدان بيت المقدس، بل ماذا خسر العالم كله بضياع بيت المقدس من أيدي أبناء هذه الأمة المسلمة، وخطورة العمل في فكرة استعادتها وتثبيت السيادة عليها ودور ذلك في الانطلاق العالمي الذي يعمل له كل مسلمٍ غيور على هذا الدين.

إن هذا الكتاب ليس إلا خلاصات لمناقشات وحوارات ومواد كتبت وحررت ونوقشت ودرست سابقاً مع العشرات من العاملين لهذا الأمر الجلل، وقد حرصت فيه على التركيز والابتعاد عن الإطناب في الشرح. ولهذا فإن الشواهد والاستدلالات فيه تأتي حسب الحاجة فقط باعتباره عصارة ذهنية مركزة لما وصل إليه كاتب هذه السطور من فهمٍ للأفكار التي وردت فيه كما أسلفت، وهو بالتالي يعرض خلاصة ما يراه صاحب هذه الكتاب بعد دراساته ومحاولاته عبر سنواتٍ الوصولَ إلى إجابة السؤال الأساسي الذي يطرحه الكتاب: ماذا خسر المسلمون بسقوط بيت المقدس. ولعل الله تعالى يجعل هذا الكتاب خطوةً مهمةً على طريق تحويل رد الفعل إلى فعلٍ مدروسٍ في كل ما يتعلق بهذه الأرض المقدسة، ولبنةً أساسيةً في بناء حضارة أمتنا الثاني وبعثها من جديد.

والحمد لله رب العالمين.

د. عبدالله معروف عمر

إسطنبول المحروسة

1439هـ / 2017م

الفصل الأول
فلسفة الأماكن المقدسة في الإسلام

مفهوم العبودية هو الأساس:

يلخص القرآن الكريم الهدف الأساسي من خلق الإنسان في مفهوم «العبادة» كما يوضحه قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56). ومفهوم العبادة فعلياً كما هو متعارف عليه بين العلماء وعامة الناس على حد سواء لا يقتصر على مفهوم العبادات الحركية والتشريعية كالصلاة والزكاة والصيام وغيرها، بل يتجاوز ذلك إلى كل ما يتم بنية العبادة أساساً، أي أنه أمر مرتبط بالقلب، فأنت إذا نمت ليلاً دون استحضار نيةٍ معينة فهذا أمر مفهوم طبيعي، ولكنك إذا ما نمت مستحضراً نيةً خاصةً وهي أن تريح جسدك استعداداً للتعبد والقيام بواجباتك الدينية والدنيوية التي أمرك الله عز وجل بها فأنت في عبادة حتى خلال نومك.

هذا أمر يتفرد به الإسلام بين جميع الديانات المعروفة التي تربط مفهوم «العبادة» بحركاتٍ وطقوسٍ مخصوصة في أماكن محددة قد تكون الكنائس في الديانة المسيحية أو الكنس في الديانة اليهودية أو المعابد في الديانات الأخرى. وضمن هذا المفهوم نستطيع أن نستوعب مفهوم الاستخلاف باعتباره قمة وظائف العبودية التي أمر الله تعالى بها الإنسان وجعلها وظيفته الأساسية التي تحقق هدف التعبد الذي أوردناه سابقاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30).

إذن فالاستخلاف جزء أساسي من هدف العبودية، ويصنف باعتباره الوظيفة الأساسية لوجود الإنسان في هذه الأرض، والقيام بهذه الوظيفة هو الذي يحقق هدف وجود الإنسان؛ أي عبادة لله عز وجل.

هدفنا من هذا الكلام أن نبين نقطة أساسية: وهي تفرد الإسلام بإدخال الدين في كافة نواحي حياة الفرد والمجتمع، وبالتالي فإن الإسلام يعتبر أسلوب حياةٍ لا مجرد طقوسٍ دينية معينة في أوقات محددة، ولعل هذا ما يجعل النظرة للإسلام لدى بعض المجتمعات الغربية على سبيل المثال نظرةً غير مفهومة في بعض الأحيان، لأن الدين لدى هذه المجتمعات محصور بشعائر الكنيسة ولا يدخل في كثير من جوانب الحياة الخاصة والعامة،

ولهذا يسهل تطبيق نظام «العلمانية» أي فصل الدين عن الحياة العامة لدى هذه المجتمعات، وهو مايصعب تصوره بنفس الكيفية في حالة المجتمع المسلم نظراً لتغلغل تعاليم الإسلام في كافة نواحي الحياة على اختلافها.

العلاقات الإنسانية الإسلامية ضمن مفهوم العبودية:

من المثير أن نلحظ أن الإسلام في نظرته للحياة أعاد تقسيم نوعية العلاقات الفردية والجماعية إلى نموذج فريد، فلو قسمت علاقات الإنسان المسلم بما يحيط به ستجدها يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أنواع من العلاقات:

1- علاقة المسلم بالله عز وجل، وهذا يتمثل بالعلاقة الفردية الخاصة التي تتجلى أساساً في الشعائر التعبدية ومفهوم الإخلاص والإجلال لله عز وجل.

2- علاقة المسلم بنبيه محمد ﷺ، وهي من أهم ما يميز المسلمين عن غيرهم من المجتمعات والأفراد الذين قد يرون أن العلاقة الفردية مع الله عز وجل موجودة فعلاً كما هو الحال في فكرة العلاقة بين اليهودي وربه في الديانة اليهودية، أو في العلاقة بين المسيحي النصراني والمسيح المخلص (باعتباره إلهاً) في الديانة المسيحية. أما لو سألت أي فرد في العالم عن ما يميز المسلمين عن غيرهم في علاقتهم فسيجيبك مباشرة باسم رسول الله ﷺ. ولعل هذا ما حدا بالمستشرقين الأوائل في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وحتى في بدايات القرن العشرين إلى إطلاق اسم (المحمديين) (Muhammadans) على المسلمين. وهذه العلاقة تتمثل في فكرة محبة النبي ﷺ وطاعته باعتباره ناقل أوامر الله عز وجل وباني هذه الأمة الأول.

3- علاقة المسلم بالبشر، وهي ما تمثلها باقي العلاقات والمعاملات في جوانب الحياة الإسلامية.

لو نظرتَ في جميع علاقات حياتك لوجدتها تنقسم إلى هذه الأنواع الثلاثة، وهنا تأتي فلسفة فكرة وجود الأماكن المقدسة في الإسلام، فوجود الأماكن المقدسة نقطة لابد منها في جميع الديانات، ذلك أن التعبد والشعائر التي تقام في أزمنة محددة لابد أن تقوم في أماكن معينة، وهو دَورُ دُورِ العبادة في العادة، ولكن وجود أماكن ذات قدسية خاصة يَفِد إليها الناس مسألة أساسية باعتبارها أحد مظاهر الاهتمام بالدين، متمثلاً بالسفر وتجشم عناء الانتقال من موقع لموقع آخر إظهاراً للارتباط بهذا الدين والتمسك بتعاليمه،

ولو كان فيه عناء ومشقة، ولذلك نلحظ في كل ديانةٍ على وجه الأرض مواقع مقدسة ذات دلالات معينة يأتيها أتباع هذه الديانات لأداء شعائرهم وعباداتهم. وهي فكرة فريدة من نوعها في الإسلام أيضاً؛ فالأماكن المقدسة في الديانات الأخرى تتعلق في العادة بارتباطها بذكرى خاصة لحدثٍ مهم كما هو الحال في الناصرة أو بيت لحم بالنسبة للمسيحيين، أو مرتبطة بذكرى قومية أو دينية كما هو الحال بالنسبة لفكرة «المعبد» بالنسبة لليهود. أما في الإسلام، فالأمر يتجاوز ذلك إلى وجود فلسفةٍ معينة وراء وجود ثلاثةِ أماكن مقدسة كبرى في الإسلام تمثل أنواع علاقات المسلمين في الإسلام التي بيناها سابقاً.

فمكة المكرمة تمثل العلاقة الخاصة بين المرء وربه عز وجل القائمة على معاني الإخلاص والحب المختلط بالإجلال والمهابة والعظمة، وهو ما تمثله الكعبة المشرفة من مهابةٍ وجلالٍ في نفوس من يصلها ويراها على الدوام، ولعل هذا هو ما يمثله منطوق حديث ابن جريج المرسل: (اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومَهابةً)، وهذا الحديث المرسل وإن ضعف إلا أنه اشتهر بين الناس وأصبح من المستحبات في القول عند رؤية الكعبة المشرفة، وهو ما ذكره الشافعي في الأم[1] وابن تيمية في مجموع الفتاوى[2]. وهذا يعني أن أي امرئ يدخل هذه المنطقة الشريفة يشعر بالجلال والهيبة والرهبة، ولو سألتَ أي شخصٍ دخل هذه المنطقة فإنه سيخبرك بهذا الشعور الذي يتملكه.

أما المدينة المنورة فإنها تمثل العلاقة مع رسول الله ﷺ، وهذه العلاقة قائمة على فكرة المحبة الأبوية التي يشعر بها كل شخصٍ أمام رسول الله ﷺ، والقرآن الكريم يؤكد هذه الفكرة في قول الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ (الاحزاب: 6). هذه العلاقة الأبوية تتمثل في فكرة الشعور بالسكينة والأمان في مدينة النبي ﷺ وفي رحاب مسجده الشريف، ولعل شعور السكينة والطمأنينة هو ما يمكن لأي شخصٍ دخل هذه الرحاب الطاهرة أن يخبرك بها.

وهنا يأتي دور بيت المقدس، التي تمثل العلاقة بين البشر جميعاً، وهي التي كانت على الدوام تمثل أنبياء الله عز وجل وهم قادة البشر وممثلوهم الحقيقيون حسب فهم الإسلام لفكرة شبكة العلاقات الإنسانية، وهذا ما توضحه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (فاطر: 24).

---

(1) الشافعي، محمد بن إدريس. كتاب الأم. تحقيق: رفعت فوزي عبدالمطلب. المنصورة: دار الوفاء. 2001. ج.3، ص.422

(2) ابن تيمية، محمد. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد القاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. 2004. ج.26، ص.120

فنجد القرآن الكريم عندما يذكر الأقوام يذكرهم في العادة بأنبيائهم ويربط قصصهم وتاريخهم بالأنبياء مثل قوم نوح الذين لا نعرف لهم اسماً إلا هذا، وقوم لوط الذين لا يذكرهم القرآن الكريم إلا بهذه الصفة، وكذلك قوم يونس وغيرهم من الأقوام. وحتى الأنبياء الذين عرَّف القرآن الكريم أسماءهم بمناطقهم ذكرهم أيضاً في القرآن الكريم بنسبتهم إلى أنبيائهم مثل قوم هود وهم عاد، وقوم صالح وهم ثمود، وقوم شعيب وهم مَديَن. وهذا يدل على أن القرآن الكريم يعتبر أن ممثلي الأمم في التاريخ هم الأنبياء فعلياً، وهذه صورةٌ حديثةٌ للتاريخ لا يمكن فهمها بالآثار وإنما بالنص الديني الذي يتجاوز فكرة طبيعة الحياة في ذلك الوقت إلى أن يربط وجودهم وانتهاء وجودهم بقصتهم مع نبيهم.

ولعل هذا هو السبب في كون الصلاةِ بالأنبياء الكرام وإمامة رسول الله ﷺ إياهم ليلة الإسراء والمعراج تمت في بيت المقدس بشكل خاص، ذلك أن هذه الأرض هي التي تمثل الأنبياء قادةَ الأمم وممثليهم الفعليين حسب الفهم الإسلامي، ولذلك فإن الإسراء وتسليم الراية لرسول الله ﷺ من البشرية جمعاء إليه كان في المسجد الأقصى المبارك الذي يمثل هذه البشرية كلها، وليس في مكة المكرمة التي تمثل جلال الله عز وجل وحرمه الخاص سبحانه وتعالى.

تكييف فلسفة «البشرية» في بيت المقدس:

من اللافت هنا أن فكرة «البشرية» التي يمثلها المسجد الأقصى المبارك وبيت المقدس تتمثل في المفاهيم البشرية للحياة، وعلى رأسها التملك وخاصة فيما يتعلق بالجمال، فلو نظرنا إلى أول حادثةٍ كبرى حدثت على الأرض وهي قتل ابن آدم الأول على يد أخيه لاحظنا أنها تمت بهذا الدافع، وهو حب التملك الذي أدى بهما إلى أن قربا قرباناً وتقبله الله عز وجل من أحدهما ولم يتقبله من الآخر، مما حدى به إلى إظهار الجانب المظلم من النفس الإنسانية المتمثل في الحسد والبغض الناتج أساساً عن حب التملك، وهو ما أدى إلى تطور الأمر إلى القتل كما بين القرآن الكريم.

هذا يعني أن طبيعة العلاقة بين الإنسان وأرض بيت المقدس قائمة على فكرة التملك، فأي إنسان يدخل بيت المقدس مهما كان جنسه أو عرقه أو دينه يشعر بأحقيته في هذه الأرض وبأنه فعلياً عاد إلى أرضه التي يمتلكها، وهذا ما يفسر إلى حد كبير الاقتتال والصراع الذي شهدته هذه الأرض على مر تاريخها إلى جانب مميزاتها الأخرى الدنيوية مثل الموقع الاستراتيجي وغيرها،

علماً بأن التركيز في كلامنا هنا هو على الجانب الوجداني في الأمر. وهذا الشعور في الحقيقة هو الشعور الذي يكون في الجنة يوم القيامة حسب الفهم الإسلامي. فالمؤمنون إذا دخلوا الجنة كانوا فعلياً قد عادوا إلى أرضهم ووطنهم الحقيقي، ولعله ما يفسر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا).[3]

في هذا المعرض تأتي فكرة «الجمال» باعتبارها أساساً لا يمكن تجاهله في تكييف تشوق المؤمنين إلى الجنة وطنهم الأصيل منذ خلق الإنسان الأول، وهو ما أكدته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تناولت الجنة ووصفها، فالتركيز فيها على الجمال واضح بَيِّن. ومَرَدُّ ذلك أن النفس الإنسانية بطبيعتها تحب الجمال وتميل إلى امتلاكه.

وهنا تتجلى فكرة جمالية هذه الأرض التي تتميز بها عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، فمكة المكرمة من الناحية الطبوغرافية أرضٌ قاحلةٌ في الصحراء بين جبال سوداء ووديان شديدة الوعورة، والمدينة المنورة فعلياً هي واحةٌ في وسط الصحراء. أما بيت المقدس وما حولها فهي أرضٌ تتميز بجمالها الطبيعي الأخاذ، وهذا الجمال يتميز عن الجمال في مناطق أخرى في العالم (مثل أوروبا أو جنوب شرق آسيا أو غيرها) بأنه ليس مجرد جمال يمثل متعةً للعين فحسب، بل هو جمالٌ متكاملٌ مع كافة أنواع الحواس ومنها التذوق والشم واللمس والإحساس.

فلا تكاد تجد أرضاً مثل منطقة الأرض المقدسة في فلسطين خصوصاً تتمثل فيها الكرة الأرضية بكل ما فيها من تنوع جمالي في بقعةٍ صغيرةٍ، والقدس في وسط ذلك كله، فمن القدس تستطيع الوصول إلى مناطق البرودة الشديدة التي لا يكاد يغيب عنها الثلج طول العام مثل جبل الشيخ في الشمال، والجبال والوديان العميقة كثيرة الاخضرار مثل مناطق الجليل الأعلى والجليل الأسفل، والبحر الواسع المتميز بمياهه الدافئة أي البحر الأبيض المتوسط، والمناطق الحارة على مدار العام مثل غور الأردن، والصحراء القاحلة بكل ما تمثلها الصحراء مثل صحراء النقب وصحراء الضفة الغربية، والوديان العميقة الوعرة كوادي النار، والسهول الواسعة المفتوحة مثل السهل الساحلي والسهل الداخلي.. وباختصار: لا تجد كافة هذه العناصر التي تمثل تنوعات الكرة الأرضية في أرضٍ صغيرةٍ لا تفصل بينها إلا سفر سويعات قليلةٍ إلا حول بيت المقدس،

(3) صحيح البخاري: كتاب الرقاق / باب القصاص يوم القيامة. انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية. 1312هـ. ج.8، ص.

وهذا لا يتوفر في أي مكان في العالم. وميزة هذا الجمال أنك لا تراه فقط بل تستشعره في كافة حواسك، فحيث يمكنك أن ترى مناظر جميلةً جداً في فلسطين فإنك تستطيع في نفس الوقت أن تقطف من هذه الشجرة الجميلة ثمرةً ذات رائحة طيبة وطعمٍ حلو، فتستشعر كل هذه المعاني الجمالية بكل حواسك، وهو أمر نادرٌ في العالم.

ولفهم ذلك نأخذ أمثلةً من العالم: ففي أوروبا توجد مناطق تعتبر بهجةً للنظر حقيقةً، ففي شمال أوروبا مثل اسكتلندة على سبيل المثال ترى مناطق في غاية الجمال، ولكنك لا تستطيع أن تزرع فيها شجرةً مثمرةً واحدةً لأن تربتها لا تستطيع أن تستنبت الأشجار المثمرة بل الأشجار الحرجية. فإذا انحدرت جنوباً إلى مناطق إيطاليا وإسبانيا القريبة من البحر الأبيض المتوسط ترى جمالاً وفاكهةً في كل مكان تقريباً، ولكنك لا تجد عنصراً مهماً في العالم وهو الصحراء بكل ما تمثله من معاني الصفاء الإنساني وغيره، مما يحدو ببعض سكان تلك المناطق إلى زيارة بلادنا العربية المشهورة بالصحاري، وفي جنوب شرق آسيا مثل ماليزيا على سبيل المثال ترى جمالاً أخاذاً، إلا أنه يفتقد للجو المناسب، فالجو في ذلك المكان لا تنوع فيه إطلاقاً لأنه استوائي، حار وممطر طول العام. وأما إذا ذهبت إلى أمريكا الشمالية فإنك تجد في الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً من المميزات التي ذكرناها في فلسطين من وجود التنوع في الأجواء والمناطق المختلفة كالصحاري والبحار والمناطق الجبلية والباردة والخضراء، ولكن على مساحة آلاف الكيلومترات، فلا يمكنك السفر هناك إلا بالطائرة أو في أيامٍ طويلة بالسيارة أو القطار لأن المساحات متباعدة جداً لا كفلسطين القريبة من بعضها.

هذه الصفات الطبيعية الخاصة جداً جعلت منطقة بيت المقدس تمثل الجمال بكل معانيه النظرية والسمعية والذوقية وغيرها، وبالتالي فإنها تعتبر غاية الجمال الذي تمثله الجنة في الضمير الإنساني. ويشهد لذلك ما ذكره مجير الدين العليمي بقوله: (وَلِهَذَا قيل ان الله تَعَالَى نظر إليه (أي المسجد الأقصى) بِعَين الْجمال وَنظر الى الْمَسْجِد الْحَرَام بِعَين الْجلَال)[4]، وما دامت النفس الإنسانية تميل بطبعها إلى تملك الجمال فإن الشعور الذي يخالج النفس عند الوصول إلى تلك الأرض المقدسة هو شعور التملك والعودة إلى الوطن، أو بعبارةٍ أخرى: الاستقرار.

ومفهوم الجمال والاستقرار الذي تمثله بيت المقدس هو ما يظهر في القرآن الكريم بعبارةٍ في غاية الأهمية ستتم دراستها في الصفحات التالية بإذن الله، وهي عبارة «البركة».

---

(4) العليمي، مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. تحقيق: محمود عودة الكعابنة. عمان: مكتبة دنديس. 1999. ج.2، ص.65.

مسجدان ثم ثلاثة مساجد:

في ظل هذه المفاهيم يمكننا أن نتفهم فلسفة وجود مكانين مقدسين فقط – قبل مبعث رسول الله ﷺ – على مر الزمان حسب الفهم الإسلامي وهما مكة المكرمة وبيت المقدس، فمكة المكرمة تمثل العلاقة مع الله عز وجل، وبيت المقدس تمثل العلاقة بالبشر الذين يمثلهم جميع الأنبياء، ولعل هذه العلاقة الفلسفية بين الموقعين هي ما حدت بمجير الدين العليمي إلى محاولة التعبير عن هذه الطبيعة الجوهرية بقوله الذي ذكرناه أعلاه.

وهنا نتفهم سبب ارتفاع مكانة المدينة المنورة فوق بيت المقدس، وسبب ارتفاع مكانة المسجد النبوي الشريف فوق المسجد الأقصى المبارك، حيث أن هذا يعود فعلياً إلى كون المدينة المنورة تمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الرسل والناس أجمعين كما قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: 253). فمكانة النبي صلى الله عليه وسلم ارتفعت فوق جميع الأنبياء، ولذلك فإنه كان لابد أن يكون للموضع الخاص به مكانةً خاصةً ترتفع فوق مكانة الموضع الذي يمثل بقية الأنبياء والبشر.

بين مفهومي العبادة والاستخلاف والمناطق المقدسة:

كيف نتفهم إذن وجود أماكن مقدسةٍ ثلاثةٍ في ظل مفهوم العبادة والاستخلاف باعتبارهما المفهومين اللذين يحققان هدف وطبيعة ووظيفة وجود الإنسان على سطح الأرض؟

ذكرنا سابقاً أن مكة المكرمة تمثل العلاقة مع الله عز وجل، وهذه العلاقة في الحقيقة تمثل العبودية بكافة مظاهرها، فالجلال والتذلل بين يدي الخالق عز وجل هو أكبر تجليات العبودية، وهو ما تمثله مكة المكرمة بكل معانيه وتلخصه بكلمة واحدةٍ هي: «الجلال». هذه العبودية التي تعتبر هدف وجود البشر على الأرض ووظيفتهم الكبرى تتمثل في معاني إنسانية كثيرة شعائرية وتعاملية، إلا أن ذروة تحقيق هدف التعبد لله عز وجل تتجلى في فكرة الاستخلاف التي هي أعلى درجات تمثيل التعبد، وهي بالتالي أكبر وظائف الإنسان، وفكرة الاستخلاف بكل ما تثيره من معاني إنسانية متمثلة في العمل والإنتاج والعلاقات البشرية وغيرها تجسده بيت المقدس. وبهذا كان لا بد أن يكون تطبيق مفهوم الاستخلاف الأخير للبشرية في بيت المقدس، وهو انعكاس واضحٌ لما قاله النبي ﷺ: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العِظام، والساعة يومئذٍ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك).[5] لاحظ استعمال النبي صلى الله عليه وسلم لفظ «الخلافة» في هذا الحديث.

(5) سنن أبي داود: كتاب الجهاد / باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة. انظر: أبو داود السجستاني. سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. بيروت: المكتبة العصرية. د.ت. ج.3، ص.19.

هكذا نفهم دور بيت المقدس في الاستخلاف الأخير للبشرية قبل قيام الساعة بكل ما يحمله هذا التعبير من معاني الجهاد والتضحية والعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وغيره من المفاهيم التي تدخل ضمن فكرة الاستخلاف، والتي تعتبر أرض بيت المقدس بالتالي مرجعاً ومربطاً لها. ولكن السؤال الذي يمكن أن يطرح هنا: أين المدينة المنورة من هذه المعادلة؟

إن دور المدينة المنورة ضمن هذه المعادلة يأتي وسطياً بين دور مكة المكرمة وبيت المقدس، فالمدينة المنورة هي المكان الذي ظهرت فيه أمة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم التي ستحقق الاستخلاف الأخير للبشرية والذي يمثل تحقيق وظيفة الاستخلاف – وهي أعلى تجليات العبادة عند الإنسان كما ذكرنا – وكانت المدينة المنورة المحضن الأول الذي تربَّت فيه الأمة المسلمة على فكرة الاستخلاف وتطبيق الشرع الحنيف ونشر هذا الدين وغير ذلك من الوظائف الاستخلافية في البشرية، فإذا ما تم الأمر على ذلك انتقلت القيادة إلى بيت المقدس لتطبيق هذا المفهوم لأنها الأرض التي تمثل البشرية أي العالمية، ولعل هذا ما يشهد له حديث النبي صلى الله عليه وسلم بعبارة «عمود الكتاب» في قوله صلى الله عليه وسلم: (بينما أنا نائم، إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام)[6]، وهذا الحديث سيتم بحثه في فقرات لاحقةٍ في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا شكل جديد يمكن من خلاله أيضاً فهم طبيعة ترتيب الأماكن المقدسة في الإسلام من حيث الخيرية إضافةً إلى ما ذكر سابقاً؛ فمكة تمثل الهدى الذي يجب أن يكون عليه الناس والذي يتمثل في تحقيق عبادة الله عز وجل، وأهم وأكبر تجليات هذه العبادة تحقيق مفهوم الاستخلاف الذي يجب أن تحققه أمة النبي صلى الله عليه وسلم في العالم، وهذا المفهوم تم التدريب عليه وفهمه وشرحه على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تمثله المدينة المنورة، ويتم تطبيقه عالمياً على يد الأمة المسلمة في بيت المقدس، وبذلك يتحقق مفهوم الاستخلاف وهو أعلى درجات العبادة. فمكة أولاً من حيث المكانة.. ثم المدينة.. ثم بيت المقدس.

بهذه الكيفية تشكلت فلسفة الأماكن المقدسة في الإسلام، وهي فكرةٌ قامت على أساس ما تمثله كل منطقة من علاقة كما بينا في البنود السابقة.

---

(6) مسند أحمد بن حنبل: مسند العشرة المبشرين بالجنة / مسند الانصار / حديث أبي الدرداء. انظر: ابن حنبل، أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة. 2001. ج.36، ص.62

وعندما ندرس تاريخ وقضية بيت المقدس على مر الزمان ضمن هذه المنظومة الفلسفية المتكاملة نستطيع أن نجد الرابط الذي يحدد طبيعة تاريخ بيت المقدس وأهميتها للبشرية كلها بشكل عام، ولهذه الأمة بشكل خاص، وهو ما نحتاجه ابتداءً لتفسير تاريخ هذه الأرض واستشراف مستقبلها، وفوق هذا وذاك: استشعار فداحة الخسارة التي منيت بها هذه الأمة بفقدان هذه القطعة الغالية من الأرض، وأهمية امتلاكها، وهو ما سيتم توضيحه في دراسة معالم هذه الأهمية الكبرى لهذه المنطقة في الصفحات التالية.

الفصل الثاني:
البركة وتجلياتها أساس الحاجة الإنسانية إلى بيت المقدس

ما هي البركة؟

البركة مفهوم يعتبر من فرائد اللغة العربية التي تتميز بها عن باقي ألسنة البشر، وهي مفهوم يرد كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بمعاني مختلفة لا يمكن جمعها بسهولة في اللغات الأخرى، لا سيما اللغات اللاتينية الغربية.

لنفهم معنى البركة عند العرب، نلقي نظرةً على ما ذكرته بعض معاجم اللغة:

يقول صاحب لسان العرب: (البَرَكة: النَّماء والزيادة. والتَّبْريك: الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة. يقال: بَرَّكْتُ عليه تَبْريكاً أي قلت له بارك الله عليك. وبارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه: وضع فيه البَرَكَة. وطعام بَرِيك: كأنه مُبارك. وقال الفراء في قوله رحمة الله وبركاته عليكم، قال: البركات السعادة؛ قال أبو منصور: وكذلك قوله في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، لأن من أسعده الله بما أسعد به النبي، صلى الله عليه وسلم، فقد نال السعادة المباركة الدائمة. وفي حديث الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم: وبارِكْ على محمد وعلى آل محمد أي أَثْبِتْ له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة، وهو من بَرَكَ البعير إذا أناخ في موضع فلزمه؛ وتطلق البَرَكَةُ أيضاً على الزيادة، والأَصلُ الأَولُ).[7]

وأما صاحب معجم مقاييس اللغة فيقول: (الباء والراء والكاف أصلٌ واحدٌ، وهو ثَباتُ الشيءِ، ثم يتفرع فروعاً يقاربُ بعضُها بعضاً، قال الخليل: البَرَكة من الزيادة والنماء).[8]

ويقول صاحب القاموس المحيط: (البَرَكَةُ، محرَّكةً: النَّماءُ والزيادةُ، والسَّعادَةُ).[9]

الملاحَظ في هذا الأمر أن جميع هذه المعاجم تكاد تتفق على ثلاث كلمات تعد مجتمعةً معنى لكلمة «بركة» وهي النماء والزيادة والسعادة، وأضاف لها معجم مقاييس اللغة مفهوماً رابعاً هو أصل الجذر ب ر ك، وهو الثبات، فكيف تجتمع هذه المعاني معاً لتكوِّنَ مفهومَ البركة؟

(7) معجم لسان العرب، مادة: ب ر ك

(8) معجم مقاييس اللغة، مادة: ب ر ك

(9) القاموس المحيط، مادة: ب ر ك

إن النماء والزيادةَ أصلٌ واحد يعني الانتشار، فإذا اجتمعت مع السعادة كان المعنى يشير إلى هذه الزيادة والانتشار والنماء لا ترتبط بسوء أو حزن، وإذن لا يقال على سبيل المثال إن الله تعالى «بارك» في المصيبة إذا انتشرت وكبرت! بل ينصرف مفهوم البركة مباشرة في الذهن إلى الخير والسعادة. وهو ما يبين لنا لماذا ارتبطت فكرة البركة في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة بمعاني الخير والسرور. وأما أصل الجذر وهو ما يدل على الثبات، فإنه يمكن أن يفهم بالترابط مع المعاني المذكورة سابقاً بأن هذا الخير والسعادة يبقى ثابتاً ملازماً للشيء المبارك. وهو ما يوحي في النفس بالراحة والطمأنينة نظراً إلى أن النماء والزيادة والسعادة التي تصيب الشيء المبارك ثابتةٌ فيه لا تزول عنه، أي غير مؤقتة.

هذا المفهوم الذي تؤديه هذه الكلمة بهذه المعاني كلها لا تكاد تجده في أي لسان آخر، فالألفاظ التي تقترب من لفظ «البركة» العربي أو تترجم عادةً إليه في اللغات الأخرى لا تحمل نفس المعنى الذي يجمع بين هذه المفاهيم كلها في نفس الوقت، بل يعني فعلياً مفهوماً آخر، نستثني من ذلك اللغة العبرية التي تستعمل لفظ ברכה (بْراخاه) للدلالة على مفهوم الزيادة والكفاية والثناء، وهذا الأمر مفهومٌ لاشتراك الأصل. أما في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال، فإن الكلمة التي تترجم في العادة إلى لفظ «بركة» وهي كلمة Blessing لا تحمل نفس المعنى الذي تؤديه كلمة «بركة» باللغة العربية، بل تقتصر فقط على الجانب الروحي الذي يعني في تلك اللغة الارتباط الروحاني بين الشيء المبارك والله عز وجل إضافة إلى معنى الموافقة على الشيء.

على أن هذا المعنى اللغوي لا يُفهَم بشكله الأصيل إلا بالنظر والتدبر في النص القرآني الذي يشرح في تركيباته الدقيقة اللطيفة المعنى الحقيقي للبركة، ولابد إذن لفهم مفهوم البركة - لا معناها اللغوي فحسب - من دراسة النص القرآني الذي يتناول هذا المعنى.

البركة في القرآن الكريم:

ذكرنا أن «البركة» أساساً في اللغة العربية ترتبط بالزيادة والنماء في الخير، وهذا ما يمكن أن يفهم من خلال دراسة النصوص القرآنية الكريمة التي تناولة لفظ البركة ومشتقاته مثل بارك، تبارك، مبارك، باركنا... إلخ. فلو نظرتَ في القرآن الكريم، فستجد أن النص القرآني يذكر مفردات الجذر (ب ر ك) 32 مرة في صيغ متعددة:

بارك: مرة واحد

باركنا: 6 مرات

بورك: مرة واحدة

تبارك: 9 مرات

بركات: مرتان

بركاته: مرة واحدة

مباركٌ: 4 مرات

مباركاً: 4 مرات

مباركة: 4 مرات

وتأتي الآيات الكريمة الاثنتان والثلاثون التي ارتبطت بمفهوم البركة على هذا النحو:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ (فصلت: 10)

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: 137)

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ (الإسراء: 1)

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71)

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأنبياء: 81)

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ (سبأ: 18)

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات: 113)

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (النمل: 8)

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54)

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: 14)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 1)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ﴾ (الفرقان: 10)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان: 61)

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: 64)

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الزخرف: 85)

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: 78)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك: 1)

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: 96)

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (هود: 48)

﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: 73)

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (الأنعام: 92)

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: 155)

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: 50)

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (ص: 29)

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: 96)

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: 31)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ (المؤمنون: 29)

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ (ق: 9)

﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ (النور: 35)

﴿ فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور: 61)

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (القصص: 30)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان: 3)

ويلحظ المتأمل في هذه الآيات الكريمة أن مادة البركة في القرآن الكريم وردت أول مرة في النص القرآني في سورة آل عمران متعلقةً بالكعبة المشرفة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: 96. وآخرها خاصة بالله عز وجل في سورة الملك: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الملك: 1، وهذا التعبير بالذات (تبارك) لا يأتي في القرآن الكريم إلا بالإشارة إلى رب العزة سبحانه وتعالى في معرض الثناء، وهو تعبير يفهم السامع منه أنه أصل البركة سبحانه وتعالى ومنبعها وأساسها، فلا يكون سبحانه وتعالى «مباركاً» بحيث يفهم السامع أن البركة حَلَّت عليه وإنما «تبارك» بأنه أصل البركة ومَرَدُّها كلها له سبحانه وتعالى. أما ما دونه من مخلوقاته سبحانه وتعالى فإن البركة تحل عليهم منه عز وجل فيكون منهم مَن «بورك» ومنهم من هو «مبارك» وتكون لهم من الله «بركات» وبعضهم يؤول إحلال البركة عليهم مباشرة لله عز وجل في فعلٍ متجدد الحصول هو «باركنا».

فما هو مفهوم البركةِ إذن؟

ربما لم يلقَ مفهومٌ عَنَتاً في شرحه والتغلغل في دواخله مثل ما لقي مفهوم «البركة»،

إذ إن فكرة الزيادة والنماء والانتشار والسعادة والثبات التي تعطيها اللغة لهذا المعنى لا يشرح مكنون هذا المفهوم من الناحية الفلسفية، ولذلك نجد أغلب المفسرين رحمهم الله إذا تكلموا عن معنى البركة الواردة في الأرض التي بارك الله فيها أرادوا شرحها فتكلموا مباشرةً عن الزروع والثمار والجو المتميز في هذه الأرض الطيبة، وهذا يفتح المجال لسؤالٍ مهم: هل تنوع الزروع والثمار والموقع الاستراتيجي والجو المتميز والتنوع التضاريسي هو البركة نفسها؟ أم أنه من مظاهر البركة أم من نتائج وجودها؟

هذه الأسئلة تطفو على السطح عندما تلحظ أن شرقي القدس وعلى بعد ما لا يزيد على خمسة كيلومترات من المسجد الأقصى المبارك يتحول إلى صحراءَ قاحلة حتى تصل إلى غور الأردن، وهي صحراء الضفة الغربية المعروفة، أما إذا سرنا غرباً فإن الأجواء تختلف والزروع والثمار تبقى بل تزداد، وكذا إذا ذهبتَ جنوباً فتصطدم بصحراء النقب، وعلى النقيض في نفس المسافة شمالاً تجد ربوع الجليل الأسفل وجبال الجليل الأعلى وما فيها من خيرات.. فكيف يستقيم هذا المعنى؟

وكذلك فإن البركة في الوقت على سبيل المثال لا تعني بالضرورة ازدياد الساعةِ إلى ساعتين، فالوقت هو الوقت، والساعة هي الساعة، فكيف يكون في الوقت بركة؟

وما هو مفهوم البركة في شجرة الزيتون كما يذكر القرآن الكريم ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ (النور: 35)؟ هل المعنى هو وجود زيت الزيتون؟ فماذا إذن عن زيت النخيل المنتشر في جنوب شرق آسيا؟

إن مفهوم البركة في الحقيقة مفهومٌ روحاني رباني لا يخضع للمنطق البشري، وهذا هو أقصى ما يمكن فهمه في أمر «البركة»، وذلك مثل مفهوم «الروح» الذي لا يمكن شرحه بالمنطق البشري، ولكن أثره يمتد ليصنع الحياة للمخلوق، بينما الحياة نفسها مجرد أثر من آثار الروح وليست هي الروح نفسها.. وبنفس المفهوم فإن ما نسميه «البركة في الوقت» يعني في الحقيقة مظهراً من مظاهر العناية الربانية التي تؤدي إلى أن يقوم المرء بعملٍ كبيرٍ يحتاج وقتاً طويلاً ضمن وقتٍ قصير لا يمكن فهم كيفية إنجاز العمل خلاله، وأذكر في هذا الجانب قصةً رواها لي أحد الأخوة في الكويت في أحد أيام شهر مارس 3 عام 2013م، حيث أراد شيخه أن يشرح له مفهوم البركة في الوقت، فأمره بأن يسجل على مدار عدة أيامٍ كل ما يفعله منذ أن يستيقظ حتى ينام في بعض أيام شهر رمضان المبارك بالتفصيل. فلما حان وقت المراجعة حسب الأخ وشيخه كافة تحركاته في هذه الأيام وكم تحتاج وقتاً على أضيق الحدود، فوجد بعد أشد الاختصارات أن يومه كان يفترض أن يكون – بحسب الإنجازات –

سبعة وعشرين ساعةً دون حساب وقت النوم، وفي الختام كانت النتيجة التي توصل إليها الأخ والشيخ أن فكرة البركة في الوقت ليست مفهوماً قابلاً للقياس.

وكذا فكرة البركة في المال، ففي هذه الحالة يكون المال المتوفر قليلاً، ولكنه يسد الاحتياجات كلها، فإذا حسبته بحاسبةٍ بعد أن انتهيت من حاجتك وجدته لا يكفي فعلاً، ولا يفهم المرء كيف كفى المال حاجته! وهكذا أيضاً فكرة البركة في الطعام التي كان لها شواهد كثيرة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى من زماننا هذا، فإن الطعام الذي لا يكفي إلا نفراً قليلاً أطعم أكثر من ألف شخصٍ في غزوة الأحزاب، وتجد في بعض الأحيان طعاماً قليلاً يكفيك بل يزيد على حاجتك دون أن تعلم كيف حدث ذلك، وهذه هي فكرة البركة.. فالمعنى ليس خاضعاً للمنطق والحسابات البشرية، فإذا حاولت حسابه وفهمه انتفى وانقضى، وهو في الحقيقة أمرٌ متعلق بالتسليم الإلهي حسب الفهم الإسلامي، ويشهد لذلك حديث السيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت: (لَقَدْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ)[10]، فعندما كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تأكل من ذلك الشعير المبارك لم يفنَ وإنما طال عليها، فلما كالته لتحسبه وتفهم ما حدث فَنِيَ وانتهى. فالزيادة والنماء هنا هما مفهومان وجدانيان غير قابلين للقياس، ولعل هذا هو سر ارتباطهما بالسعادة وهي مفهوم وجداني غير قابل للقياس، وكذا الثبات الذي هو بحد ذاته مفهوم وجداني أيضاً وليس شيئاً محسوساً.

وأما ما يذكره العلماء وما يفهمه الناس عموماً من فكرة البركة بمعنى الزيادة في الزروع والثمار والمال وغيرها فإنه في الحقيقة ليس إلا مظاهر وجود البركة في الوقت أو في المال أو في الأرض أو في غيرها، وهذه المظاهر يمكن حساب بعضها ولا يمكن حساب أخرى.

الأرض التي بارك الله فيها:

وهنا يأتي دور فكرة الأرض التي بارك الله فيها للعالمين وهي أرض بيت المقدس وما حولها من أراضٍ، فإذا ارتبط الموضوع بالأرض في القرآن الكريم نجد النص القرآني يقتصر هنا على ألفاظ «مبارك» و«بارك» أو «باركنا». والفرق بين اللفظين كما يُفهَمُ منه أن ما هو مبارك قد حصل على بركةٍ بذاته من الله عز وجل، فأصبحت البركة ثابتةً متأصلةً فيه، وهذا ما يظهر في الكلام على الكعبة المشرفة والماء وكأنه أصل بركةٍ لكل ما يصيبه.

(10) صحيح البخاري: كتاب الرقاق / باب فضل الفقر. انظر: صحيح البخاري. ج.4، ص.81

أما عندما يخصص القرآن الكريم أرضاً خاصةً بحدودٍ معينة - وهي على الأرجح الأرض التي تقع فيها بيت المقدس وهي أصل حديثنا هنا[11] - فإن النص القرآني يتجاوز ذلك ليقول: «باركنا فيها» وليس «باركناها»! وهذا المعنى إنما يدل على أن البركة التي وضعت في هذه الأرض إنما تصيب كل ما يدب عليها أو في داخلها، وليس فقط في التراب الذي يشكل معنى الأرض، فلو قال: (باركناها) لكان لزاماً على كل من يريد أن يصيب بركة هذه الأرض أن يدخل باطنها ويكون جزءاً منها لتصيبه بركتها، ولكنه قال (باركنا فيها) لتكون البركة منفصلةً عن كيان الأرض نفسها، وهكذا تكون الزروع التي تخرج منها مصابةً ببركتها، ويكون الناس الذين يدبون عليها مصابين ببركتها وهم فوقها، ويكون الهواء الذي يمر بها محملاً ببركتها.

على أن هناك مفهوماً آخر قد تفيده عبارة «باركنا فيها» وهي كون البركة التي حلت على هذه القطعة من الأرض قادمةً من مصدرٍ معين جعله الله عز وجل منبعاً لهذه البركة وأصلاً لها، بوجوده توجد هذه البركة، وبفقده تفقد هذه البركة، وذلك مَثَلُ الشمس التي تعتبر مصدراً للنور على هذه الأرض فسماها القرآن الكريم «سِراجاً». وهنا لا يمكن أن تخطئ العين الآية الكريمة التي جاءت متميزة عن باقي آيات البركة - لا سيما آيات بركة الأرض - التي أوردها النص القرآني الجليل، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ الإسراء: 1.

يلحظ المرء عندما يتأمل هذه الآية الفريدة في تركيبها وتعبيرها أنها الآية الوحيدة التي حولت معنى البركة من الوجود «في» منطقةٍ معينة إلى الوجود «حول» منطقةٍ معينة، وهي في هذه الحالة المسجد الأقصى المبارك كما توضح الآية الكريمة بجلاء، فلماذا كانت البركة هنا «حول» المسجد الأقصى المبارك ولم تكن «فيه» كباقي الكلام عن الأرض التي تحيط به في الآيات الأخرى «الأرض التي باركنا فيها»؟ ولِمَ كانت البركة «حوله» ولم يكن هو «مباركاً» بنفسه كما هو الحال في الكعبة المشرفة؟

إن هذه الآية الكريمة تعطي معنى مدهشاً حقيقةً، ذلك أن معنى الحولية يعني بالضرورة أن هذا المسجد هو مركز هذه البركة بالمعنى المصدري لا بالمعنى المكاني، وبالتالي فإنه مصدرها الذي ينشرها إلى باقي الأراضي التي «باركنا فيها» كما يقول الله عز وجل في القرآن الكريم.

(11) لسنا هنا في معرض دراسة حدود هذه الأرض بالتفاصيل العلمية التي درسها غير واحد من العلماء، فقد اهتم بها باحثون كثر، وقد وضحوا أنها تعني بالتحديد منطقة بلاد الشام التي حددوها من حلب شمالاً إلى تبوك جنوباً، ومن منطقة بادية الشام شرقاً إلى العريش غرباً. ويمكن الرجوع في ذلك للاستزادة إلى كتاب المدخل إلى دراسات بيت المقدس، انظر: عمر، عبدالله معروف. المدخل إلى دراسات بيت المقدس. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2017. ص. 61-62

وهـذه الآيـة بالتالي توضح لنا مصدر البركة التي ذكرناها سابقاً، فالبركة لم تكن موجودةً أصـلاً في هـذه البقعة من الأرض لـولا وجـود المسجد الأقصى المبارك الذي هو منبع هـذه البركة وأصلها الـذي تنبع منه وتفيض إلـى ما حوله، وهـو المعنى الذي يشير إليه سيد قطب في الظلال حيث يقول: (ووصـف المسجد الأقصى بأنه «الـذي باركنا حوله» وصف يرسم البركة حافة بالمسجد، فائضة عليه. وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل: باركناه أو باركنا فيه. وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب).[12]

ويمكن تخيل ذلك بجزء من مفهوم البركة في اللغة وهي الزيادة والنماء، فالزيادة والنماء تفيد الانتشار، والانتشار يكون من مصدرٍ في العادة إلى ما حول المصدر، فيكون المصدر هو النقطة المحورية لنماء وانتشار هذا الشيء الذي ينتشر منه إلى ما حوله. وذلك مثاله في جسد الإنسان القلب في حال نبضته التي يخرج فيها الدم لينشره في الجسد، فالقلب ينشر الحياة في الجسد متمثلةً في الدم الذي يحمل إكسير الحياة (الأوكسيجين) إلى جميع أنحاء البدن، فتنتعش الأعضاء وتتنفس وتحيا، فإذا توقف القلب عن النبض توقف انتشار الدم في العروق وتوقفت الحياة وأصبح الجسد ميتاً هامداً لا روح فيه.

ومن المفارقات أن تجد سورة الإسراء التي تذكر هذا المعنى واقعةً في قلب القرآن الكريم بالضبط، فموقع القلب في الصدر ليس في منتصفه بل يميل قليلاً عن الوسط إلى الشمال، أي قبل منتصف الصدر بقليل، وسورة الإسراء تقع قبل منتصف القرآن الكريم بقليل، في حين يقع وسط القرآن في سورة الكهف التي تلي هذه السورة الكريمة، بل إن حادثة الإسراء – عندما حققها كاتب هذه السطور في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه – ظهر أنها كانت قبل منتصف فترة البعثة النبوية بقليل، ومنتصف البعثة كانت بيعة العقبة. وحتى الموقع الذي كان إليه الإسراء يقع قبيل وسط القشرة الأرضية، فوسط القشرة الأرضية على ما حققه د. حسين كمال الدين رحمه الله يقع في مكة المكرمة[13]، فإذا نشرنا القشرة الأرضية على ورقةٍ وعلى شكل دائرةٍ تلمس حوافَّ القارات كلها لوجدنا وسطها مكة المكرمة، وقربها تقع بيت المقدس في موضع القلب. بل إن أعلى نقطةٍ في المسجد الأقصى المبارك وهي الصخرة المشرفة لا تقع في وسطه تماماً بل تميل عن الوسط قليلاً، أي في موضع القلب،

(12) قطب، سيد. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق. 1412هـ. ج.4، ص.2212.

(13) كمال الدين، حسين. «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة وتعيين اتجاه القبلة». مجلة البحوث الإسلامية. العدد الثاني. الإصدار: شوال–ربيع الأول 1395–1396هـ. ص.289-338.
http://www.alifta.net/Fatawa/FatawaDetails.aspx?languagename=ar&View=Tree&NodeID=341&PageNo=1&BookID=2
شوهد بتاريخ 2017/10/16
كما نقل د. سعد المرصفي بحث د. حسين كمال الدين وضمَّنه بالكامل في كتابه (الكعبة مركز العالم). انظر: المرصفي، سعد. الكعبة مركز العالم. الكويت: مكتبة المنار الإسلامية. 1998. ص.148-213.

وقد أحسن الأمويون عندما بنوا في نقطةِ وسط المسجد الأقصى المبارك قبةً صغيرةً اسمها قبة السلسلة تجاور قبة الصخرة المشرفة وتبين هذا المعنى بوضوح.

فالأقصى والإسراء والبركة كلها قَلبٌ في قلبٍ في قلبٍ؛ قلب في الزمان، وقلب في المكان، وقلب في الموضع، وقلب في القرآن الكريم، وهذا ما يناسب تماماً مفهوم البركة في اللغة – ونقصد هنا أثر البركة – بالزيادة والانتشار والنماء المقرون بالسعادة والثبات الذي تمثله الحياة واستمرارها بهذا الشكل. وهذا ما يعطي انطباعاً مهماً حول حقيقة الحاجة للمسجد الأقصى المبارك، فالأقصى المبارك هو أصل بركة هذه المنطقة المركزية (من حيث دورها) في العالَم، ودون المسجد الأُقصى تنتفي البركة من هذه الأرض، وانتفاء البركة يزيل الحياة بمعناها الإنساني المرتبط بالسعادة والراحة والنمو والازدهار، أو ما يسمى عند الغربيين: To Live، لا بمعناها الحيواني المرتبط بالحاجات الأساسية دون شعورٍ أو إحساس، أو ما يسمى عند الغربيين To Survive.

إن انتفاء البركة بهذا المعنى يعني تحول الإنسان إلى مخلوقٍ يأكل ويشرب وينام ويعمل دون حياة حقيقية، فالحياة بمفهومها الوجداني هي الحركة والأحاسيس والرضا وما شابهها، وهذا ما تمثله البركة في هذه الأرض، فدونها لا يشعر المرء بالكفاية، فلا يشعر بالرضا، فتكون حياته منغصة بعيدةً عن الراحة والسعادة، وهو في ذلك لا يعود إنساناً بل مخلوقاً كأي مخلوقٍ آخر أدنى مرتبةً منه. فالإنسان كتلة أحاسيس وشعور ووجدان بالدرجة الأولى، وهو ما يميزه عن غيره.

البركة هنا «للعالمين»:

من الملاحظ أن البركة التي ذكرها الله عز وجل على أنها في أرضٍ مخصوصةٍ هي الأقرب إلى المسجد الأقصى المبارك. ولكن الملاحظ أن القرآن الكريم ربط البركة في هذه البقعة من الأرض بعبارة «للعالمين» في قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 71). وعبارة «العالمين» لا تعني بأي شكل المؤمنين أو المسلمين، بل هي لفظ يشمل كل شيء، ومثالها ما نقرأه كل يوم في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾(الفاتحة: 2)، أي رب كل شيء لا رب المسلمين أو المؤمنين أو الموحدين وحدهم.

يدل ذلك إذن على أن هذه البركة التي وضعها الله عز وجل في هذه الأرض ليست خاصةً بجنسٍ أو عِرقٍ أو دِينٍ دون آخر، فكل مَن وصل هذه الأرض تمتع بآثار بركتها وشعر بها. ولو لم يقل الله عز وجل «للعالمين» لكان يمكن لأي شخص أن يدعي أن غيره لا يشعر بآثار هذه البركة.

وهذا المعنى يشير بوضوح إلى أنه حتى من كفر أو ألحد أو أشرك بالله يمكنه أن يشعر بآثار بركة بيت المقدس ما دام في هذه الأرض، فبركتها ليست حكراً على من يؤمن بالله عز وجل.

هذا المعنى يفسر في الحقيقة جزءاً من مفهوم الصراع على ملكية هذه الأرض، فلو لم يشعر الناس ببركتها ولم يروا أثرها فلا يمكن أن يهتموا بها، كلٌّ يشعر بهذه البركة حسب فهمه وطبيعته: فمنهم من يرى من آثار هذه البركةِ الموقع الاستراتيجي لهذه البقعة من الأرض بين قارات العالم القديم الثلاث، ومنهم من يرى من آثارها الزروع والثمار والخيرات، ومنهم من يرى من آثارها الراحة النفسية ومتعة العين، ومنهم من يرى من آثارها الراحة الدينية والدنيوية.. وهكذا.

بين «حوله» و«مباركاً» و«فيها» في الأماكن المقدسة الثلاثة:

إذا أتينا لمعنى البركة ومفهومه وتجلياته في الأماكن المقدسة الثلاثة في الإسلام: أي مكة والمدينة وبيت المقدس، وجدنا أنه في منطقة المسجد الأقصى المبارك كان «حوله» كما تذكر الآية الكريمة الأولى في سورة الإسراء. وأما في الكعبة المشرفة فإن البركة تأتي متمثلة بالكعبة نفسها كما ينص القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 96)، وأما في المدينة المنورة، فإن لفظ البركة جاء في الحديث النبوي الشريف: (اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مُدِّنا، وفي صاعِنا بركة مع بركة) رواه مسلم.[14]

وأما المسجد الأقصى المبارك فيأتي التعبير القرآني الكريم: ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ الإسراء: 1.

نلحظ هنا نقطتين:

الأولى: أن تعبير البركة لم يأتِ هنا متعلقاً بالمسجد النبوي الشريف، بل بالمدينة المنورة كلها بشكل عام، ولا يوجد أي نص قرآني أو نبوي يتناول موضوع البركة باعتباره مرتبطاً بالمسجد النبوي الشريف، ولكن هذا لا يعني أنه غير مبارك، لأنه جزء من المدينة المنورة وبالتالي فالبركة التي في المدينة المنورة تحل عليه كما تحل على أي بقعةٍ في المدينة، كل جزءٍ بحسب طبيعته.

الثانية: أن الأقصى المبارك يتميز عن كل من المسجد النبوي الشريف والمسجد الحرام في أن مفهوم البركة يتجاوز المسجد نفسه ليكون «حوله» لا كما ورد في المسجد الحرام الذي تتركز البركة فيه في الكعبة نفسها، وفي المدينة المنورة التي تحتوي على المسجد النبوي الشريف وتشملها البركة بنفسها كل ناحية فيها بنفس الدرجة.

(14) صحيح مسلم: كتاب الحج / باب فضل المدينة ودعاء النبي، انظر: مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. بيروت: دار الكتب العلمية. 1991. ج.1، ص.1000.

هذه الأمور نحتاجها لفهم وإستيضاح طبيعة الترابط والعلاقة بين هذه المساجد فيما يتعلق بالبركة، فإذا ما تجاوزنا مفهوم «البركة» لندرس مفهوم «الحرمة» بمعناها الروحاني والفقهي وندرس الترابط بينه وبين مفهوم البركة فإننا نجد أمراً آخر.

فمفهوم «الحرمة» له عدة جوانب لفهمه:

أولاً: المعنى الفقهي:

ونعني هنا الأحكام الفقهية المتعلقة به؛ فالحرمة حدد معناها الفقهيَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: (إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم المدينة ، حرام ما بين حرتيها وحماها كله ، لا يختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها ، إلا لمن أشار بها ، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال).[15]

هذا الحديث يعطينا تلخيص الأحكام الفقهية المتعلقة بحرمي مكة المكرمة والمدينة المنورة: تحريم القتال فيها، وتحريم قطع شجرها وصيد صيدها أو حتى تنفيره، وتحريم التقاط لقطتها. هذا الاهتمام ببيان هذه الأحكام الفقهية الخاصة في هاتين المنطقتين تبعه ضرورة تحديد منطقة الحرمين، ولهذا نجد أن أعلام الحرم المكي تمت المحافظة عليها منذ عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأكدها النبي صلى الله عليه وسلم، وبقيت حتى يومنا الحالي، وما ذلك إلا لارتباطها فعلياً بأحكام الفقه التي ينبني عليها شعائر محددة مخصوصة في هاتين المنطقتين.

ثانياً: المعنى الروحاني

هذا الأمر يرتبط فعلياً بالمعنى الفقهي المتعلق بهاتين المنطقتين الجليلتين، وعنوان هذه الأحكام الخاصة بهاتين المنطقتين هنا هو الأمن، فنحن نلحظ كثرة ذكر الأمن عند الكلام على مكة المكرمة وحرمها في القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: 57)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: 67)، وكذلك في المدينة المنورة كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المدينة حرم ، فمن أحدث فيها حدثا ، أو آوى محدثا ، فعليه : لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة عدل ، ولا صرف)[16].

(15) مسند أحمد بن حنبل: مسند العشرة المبشرين بالجنة / مسند الخلفاء الراشدين / ومن مسند علي بن أبي طالب. انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج.2، ص. 267

(16) صحيح مسلم: كتاب الحج / باب فضل المدينة ودعاء النبي، انظر: صحيح مسلم. ج.1، ص.999

نلحظ هنا أن معنى الأمن يتجلى في كل نقطة وكل حكم من أحكام منطقة الحرم في مكة والمدينة، فمنع القتال والإحداث فيها أصله أمن للناس على أرواحهم، ومنع الصيد فيها أصله أمن الحيوانات على أرواحها، ومنع قطع الشجر فيها أصله أمن الأشجار على أرواحها أيضاً، فهي آمنة لكافة الأحياء من إنسان وحيوان ونبات، وأما منع التقاط لقطتها فهو من تمام الأمن وهو الأمن على الأموال، فالأمن فيها يصل لدرجة أن الأصل أن لا يفقد فيها إنسانٌ شيئاً حتى أمواله، فإن فقدها رجع وكان الواجب أن يجدها حيث فقدها لأن التقاطها وأخذها لا يجوز شرعاً، وهذه الأحكام كلها كما نلاحظ ترتبط بالأمن الشخصي للمخلوق ابتداءً، وذلك لأنه لا يوجد لهذه المناطق دور عام يخص الحياة الدنيوية للبشرية جمعاء كما هو الحال بالنسبة لبيت المقدس.

لماذا لم تكن بيت المقدس حرماً إذن؟

هنا يتجلى واضحاً سبب عدم كون الحرمة التي تتجلى في مكة والمدينة موجودةً بنفس الشكل الفقهي الخاص في بيت المقدس، فبيت المقدس أرض ملاحم وابتلاءات وحكم للناس، وهي أرض البشرية التي تتجلى فيها البشرية بكل ما فيها كما بينا سابقاً، ولذلك كان لابد أن لا تكون حرماً بمعنى أن لا تكون لها أحكام خاصة عن الطبيعة البشرية بكل ما فيها، ولأن معنى عالمية البركة هنا ينافي معنى الحرمة، فالحرمة مفهومٌ يشير إلى الاقتصار والاستبعاد، لأن فيه استبعاداً لأمور مقبولة في غيره. وأما مفهوم البركة فيشير إلى الانتشار والزيادة، وهو ما يعاكس مقتضيات معنى الحرمة.

بين البركة والحرمة:

هنا نستطيع أن نكتشف هذه العلاقة المركبة بين البركة والحرمة وعلاقتها بتجلي كل منها في كل موقعٍ من هذه المواقع المقدسة في الإسلام؛ فالبركة تقتضي الزيادة والانتشار ابتداءً، وهي بالتالي تحمل معنى العالمية، والعالمية تحمل البعد الإنساني بشكله العام والواسع، ولهذا كان لابد أن تكون البركة في الأقصى (حوله) وكان لابد أن تكون البركة صادرةً من هذه الأرض المباركة للعالمين، وهو ما يتساوق تماماً مع طبيعة بيت المقدس العالمية الإنسانية التي بيناها في الفصل السابق. بينما نجد أن مكة والمدينة ترتبطان بالفرد المسلم وعلاقته الشخصية بالله عز وجل أو علاقته الشخصية بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فإننا نجد أن المعنى المتجلي في هاتين المنطقتين هو معنى الحرمة،

ونجد كذلك أن مفهوم البركة الموجود في هاتين المنطقتين يتجلى في مواقع محددة فقط، فهو في حالة مكة المكرمة مرتبط بالكعبة نفسها حسب النص القرآني، وأما في المدينة المنورة فإنه مرتبط بالمدينة نفسها، ولا نجد في الحالتين مفهوم الحولية إلا فيما يتعلق بمفهوم الحرمة الذي يخرج خارج حدود المسجد الحرام في مكة، ويخرج خارج حدود المدينة المنورة نفسها إلى منطقةٍ محددةٍ حولها وتصل ما بين جبل عير وجبل ثور، وهما جبلان خارج حدود المدينة المنورة نفسها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذن فالبركة في بيت المقدس مناظِرةٌ للحرمة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

مفهوم القدسية في هذه المعادلة:

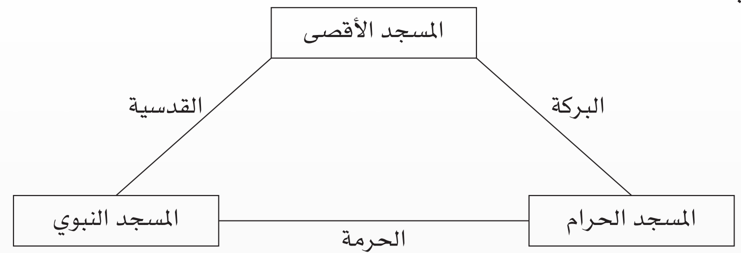
إن من الملاحظ أيضاً أن الاسم المختار لمنطقة المسجد الأقصى المبارك كما ورد في القرآن الكريم كان (الأرض المقدسة)، وكذلك ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم تسميته باسم (بيت المقدس)، وهو الاسم الذي كان معروفاً للمسجد الأقصى المبارك قبل نزول سورة الإسراء وتسميةِ المسجدِ باسم (الأقصى). فما علاقة هذا المفهوم (أي القدسية) بمفهومي البركة في بيت المقدس ومكة والمدينة، والحرمة في مكة والمدينة؟

إن القدسية تشير فعلياً إلى شدة الطهارة كما هو معلوم، ومن الجميل أن نلحظ أن التعبير القرآني حول هذه المنطقة جاء بلفظ (الأرض المقدسة) لا كما كان الحال في مفهوم البركة (التي باركنا فيها). هذا الأمر يدل على أن القدسية كانت في نفس الأرض دون النظر لوجود المسجد الأقصى المبارك أو عدمه، وإن كان أبرز وأقدس بقعةٍ فيها، ولذلك سماه (بيت المقدس) وعبارة (مَقدِس) بفتح الفاء وتسكين القاف وكسر التاء يمكن أن تُفهَم على أنها اسم مكان، أي أنه مقر القدسية ومحل نزولها وتجليها الأكبر، ولكنه ليس مصدرها لأنها هي بذاتها «مقدسة». وأما حين جاء الأمر متعلقاً بالبركة فإن كلمة (فيها) تدل على أن البركة جاءت بمؤثرٍ ولم تكن في نفس الأرض، وهذا المؤثر هو المسجد الأقصى المبارك الذي بارك الله (حوله) وجعله مركز هذه البركة ومصدرها كما ذكرنا سابقاً.

هنا نستطيع أن نربط بين المساجد الثلاثة: المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى في معادلةٍ معينة ضمن هذا المفهومين: فالحرمة في مكة مرتبطة أساساً بوجود المسجد الحرام لأنه هو الحرام بنفسه، وهكذا البركة في الأرض التي بارك الله فيها مرتبطةٌ بوجود المسجد الأقصى المبارك الذي بارك الله حوله.

أما الحرمة في المدينة المنورة فموجودة فيها دون النظر إلى وجود المسجد النبوي الشريف لأن النبي حرمها نفسها ولم يسم مسجده (الحرام) أو (الحرم) وإن كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أعظم بقاع المدينة المنورة وأشدها حرمة، وهذا هو الحال في قدسية الأرض المقدسة التي ترتبط بالأرض نفسها دون النظر إلى وجود المسجد الأقصى المبارك لأن القرآن الكريم جعلها مقدسة بذاتها، وإن كان الأقصى المبارك هو أقدس بقعةٍ فيها لأن اسمه الأول كان (بيت المقدس)، فجعله موضع القدسية الأكبر فيها وإن لم ترتبط القدسية به.

هذه المعادلة تعني أن هناك ارتباطاً بين مكة والمدينة وبيت المقدس في مفاهيم الحرمة والبركة والقدسية، وكلها مفاهيم مرتبطة ببعضها كما يتبين من التعبيرات القرآنية والنبوية الدقيقة عن معاني البركة والقدسية والحرمة في هذه المواقع، ويمكن أن يعبر عنها الشكل التالي:



تجليات البركة في بيت المقدس:

قلنا إن البركة ليست مفهوماً قابلاً للقياس لأنها مفهوم روحاني يتجاوز المنطق البشري في الحساب، وأما ما يذكر العلماء في كتب التفسير والتاريخ والرحلات وغيرها من تنوع الزروع والثمار في تلك المنطقة فإنه فعلياً يعتبر تجلياتٍ ومظاهرَ وآثاراً للبركة لا مفهوماً للبركة نفسها التي لا يمكن قياسها بمقاييس البشر! ومن أبرز تجليات هذه البركة مفهوم (الجمال) الذي يتجلى في بيت المقدس كما وضحناه سابقاً.

كما أن من أهم وأبرز تجليات البركة وآثارها (السعادة) كما هو في لغة العرب، وهذه السعادة ترتبط في النفس الإنسانية بالجمال، ولذلك قيل: (إذا نظرتَ إليها سرَّتك)، فالعين تبحث عن الجمال لأنه أحد أهم أسرار السعادة والراحة، ولك أن تختبر ذلك بنفسك، فتنظر إلى صورةٍ جميلةٍ وتقيس الوقت الذي تحتمل فيه إمعان النظر في هذه الصورة، ثم تنتقل إلى صورةٍ بشعةٍ منَفِّرة وتقس الوقت الذي تحتمل فيه نفسك إمعان النظر في هذه الصورة الشنيعة.

وبالتأكيد سيكون الجمال هو الفائز في هذا الاختبار. والجمال الحسي أحد أهم تجليات الجمال في هذه الأرض الطاهرة، وليس معنى الجمال هنا أن لا يكون هناك أرض أخرى لها نفس هذا الجمال، حيث عرفنا مناطق في العالم أجمل بكثير في المشهد العام من بعض مناطق الأرض التي بارك الله فيها، ولكن الجمال هنا جمال حسي ومعنوي وفيه ذائقة مختلفة متنوعة بين فصول السنة كما ذكرنا سابقاً، وهو ليس جمالاً مرتبطاً بما تراه العين فقط، بل تراه العين، ويشمه الأنف، ويتذوقه اللسان، ويشعر به الجلد، كل ذلك في نفس اللحظة. فشجرة التين الجميلة تشم منها ريحاً طيبةً وتعطيك ثمرةً حلوة في نفس الوقت، وهذا قمة الجمال وغاية تجليه في كل مظاهره، فهو ليس جمالاً نظرياً فقط، بل جمال حسي ومعنوي وروحاني.

على أن الجمال بالذات يغذي طبيعةً خاصةً في النفس البشرية تتمثل في حب التملك لهذه البقعة، حيث أن النفس البشرية تميل في مسألة الجمال إلى الأنانية وحب التملك الشخصي أكثر من المشاركة. ولعل هذا يكون أحد أهم أسباب الأنانية في حب هذه الأرض الذي ينتاب محبيها ومريديها بشكل عام، فهي كذلك لأنها الأرض التي تترجم جميع نوازع النفس الإنسانية ودواخلها. وبالتالي، فإن من الممكن أن يكتشف المرء ذاته من خلال علاقته بهذه الأرض. وكذلك يمكن للناس من حول المرء أن يكتشفوا دواخله ويسبروا أغوار نفسه، فيُعرَف من خلال العلاقة مع بيت المقدس البخيلُ مِنَ الكريمِ، والأُمَّة الأنانية السادِيَّة من الأُمَّةِ الكريمة التي تجمع البشر. وهكذا نفهم طبيعة الأمم والملوك والشعوب التي حكمت وسكنت وتقاتلت على هذه الأرض. فعلى الصعيد الشخصي: تجد المرء الأناني بطبعه (وإن كان يخفي ذلك) يميل للأنانية في حبه لبيت المقدس وتملكها واعتبارها خاصة له وحده، بينما تجد الكريم بطبعه يقبل الآخر ولا يرى مشكلةً في أن يشاركه غيره الاهتمام والإبداع فيما يتعلق ببيت المقدس. وعلى الصعيد الجماعي أيضاً تجد الأمة التي تقبل الآخر في هذه الأرض بالذات أمةً كريمةً تستحق قيادة البشر، بينما تجد الأمة التي لا تقبل غيرها على هذه الأرض أمةً متسلطةً ظالمةً في جوانبها الأخرى وإن بدت حضاريةً من الناحية المادية.

العالمية من تجليات البركة:

ومن أهم وأبرز تجليات البركة في بيت المقدس أيضاً مفهوم الانتشار والعالمية بمعنى تأثير كل شيء فيها على العالم كله، وهذا معنى يؤكده التاريخ. ويمكن التأكيد هنا على حقيقةٍ تاريخية: وهي أنه لم تكن هناك قوةٌ عالمية كبرى قد ظهرت على مر التاريخ وأثرت على العالم كله إلا كان ذلك بعد حصولها على بيت المقدس.

قد تكون هناك قوة عظمى وإمبراطورية مهمة في إحدى بقاع الأرض، ولكن هذه القوة الكبيرة تبقى محلية ولا تؤثر على العالم كله حتى يكون لها يد في بيت المقدس سواء كان ذلك بالسيطرة المباشرة أو غير المباشرة، والشواهد من التاريخ كثيرة: فإمبراطوريات الفرس والروم لم تتحول إلى دول عالمية كبرى حتى كان لها يد في بيت المقدس أو ما حولها، والإمبراطورية اليونانية أصبحت قوةً عالمية في عهد الإسكندر بعد أن أخذت بيت المقدس، وكذلك نجد إمبراطوريات كبرى في أمريكا الجنوبية مثل حضارة الإنكا والأزتك أو في آسيا مثل الصين لم يكن لها أي تأثير على العالم القديم بالرغم من اتساعها وأهميتها، حيث لم يكن لها يد ولا أثر مباشر أو غير مباشر في بيت المقدس وما حولها، وإمبراطورية المغول سقطت زمانياً بعد أن فشلت في السيطرة التامة على بيت المقدس. وهذا الأمر ليس مفهوماً روحانياً بل استراتيجياً.. فالموقع الاستراتيجي لهذه الأرض في قلب العالم كله هو بحد ذاته من تجليات بركتها، وهو الذي يترجم في العلوم السياسية إلى فكرة التأثير العالمي. وهذا المعنى هو الذي يحقق الفكرة التي ذكرناها من حيث كون بيت المقدس الموقع الذي يجب أن تمر منه القوى التي تريد أن تصل لمستوى القوة العالمية الكبرى، ولا يمكن أن تكون هناك أي دولةٍ كبرى ذات نفوذ في العالم كله دون أن تضع يدها على بيت المقدس، فيسهل لها بذلك صناعة ما يسميه علماء العلوم السياسية (القوة الناعمة) التي تؤثر بها على العالم كله بشكل غير مباشر، أو حتى القوة التي تسيطر بهذا هذه الدولة أو القوى العالمية على الكرة الأرضية كلها أو أغلبها، وهو ما توضحه أمثلة التاريخ كما أسلفنا.

ولبيان ذلك، نعود إلى ما ذكر في الصفحات السابقة حول فكرة كون بيت المقدس قلباً في الزمان (في رحلة الإسراء) وقلباً في المكان (في قلب الكرة الأرضية) وقلباً في القرآن (في سورة الإسراء): ففكرة ربط هذه البقعة بالقلب بالذات نقطةٌ في غاية الأهمية، لأن القلب مضخة الحياة التي تضخ الدم – وهو إكسير الحياة – إلى الجسم كله. وهذا ما ينطبق فعلياً على بيت المقدس؛ فإحدى مظاهر البركة وآثارها الزيادةُ والانتشار، وهذا بالضبط ما يفهم كصورةٍ بصريةٍ عند النظر إلى عمل القلب في الجسد، فالدم المتجمع في القلب ينطلق منه في دورته الدموية الكبرى فينتشر إلى الجسم كله حاملاً معه الحياة إلى كافة أعضاء الجسم، ثم يعود إلى القلب مرة أخرى ليستعيد دورته من جديد بعد تنظيفه في دورته الصغرى من الشوائب والغازات السامة وتحميله مرة أخرى بالهواء النقي المحمل بعنصر الأوكسيجين الذي يعطي الغذاء والحياة.. ولنا عند هذا المثال البصري وقفة بعد قليل بإذن الله... ولكن ما يجب التنبيه إليه في هذه الصورة حالياً هو عملية الانتشار بحد ذاتها، والتي مصدرها القلب.

وهذا الانتشار حين يتعلق ببيت المقدس يكون أقرب ما يكون إلى شكل الدم والحياة الذي ينتشر من القلب إلى الجسد كله، فيتحقق معه معنى الانتشار، ومعنى الزيادة والنماء، ومعنى الحياة، ومعنى الاستقرار والسعادة أيضاً. وبالتالي فإن بيت المقدس هي في الحقيقة مضخةٌ تضخ الحياة إلى البشرية كلها، لأن هذه البقعة هي أصل البركة ومعدنها وموقع صناعتها ونشرها إلى العالم كله، فهي بالتالي البقعة التي لابد منها لتحيا البشرية براحةٍ وسعادةٍ ونماء، لأنها هي معدن هذه المعاني كلها التي تنصهر معاً في مفهوم البركة.. وهنا يتوضح معنى العالمية في بيت المقدس، حيث أن بركة بيت المقدس ليس لها حدود في القرآن الكريم لأن القرآن يوضح أنها (للعالمين)، ولهذا فلابد من هذه الأرض ليحيا العالم كله، بل إنها تهب الحياة للعالَمين كلهم، أي لكل شيء حي، وهذا ما لا ينطبق على أرض أخرى.

بين (هدى للعالمين) في مكة و(باركنا فيها للعالمين) في بيت المقدس:

على أن هناك معنى آخر تبرز فيه مكة بنفس التعبير القرآني (للعالمين) لتنافس بيت المقدس في فكرة العالمية أيضاً، لكن في ميدان آخر يمثله لفظ (هدى) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 96). هذه الآية الكريمة توضح لنا فرقاً جوهرياً بين مكة وبيت المقدس، ذلك أن البركة في البيت الحرام موجودة فيه بذاته لا تتعداه كما هو واضح من النص القرآني الدقيق، أما في حالة المسجد الأقصى المبارك فالبركة متعدية منه إلى ما حوله. ولكن في الحالتين نجد كلمةً مشتركةً بين الاثنين وهي لفظ (للعالمين). وهذا اللفظ إنما يدل على كل شيء حي، لا على البشر فقط. ولذلك وجبَ أن يكون هناك علاقة ما يمكن من خلالها فهم هذا التناظر بين الهدى في مكة، والبركة في بيت المقدس، ومعنى كون المفهومين للعالمين.

هنا نعود للصورة البصرية التي ذكرناها قبل قليل حول معنى القلب والبركة وعلاقته بالانتشار، فالقلب ينشر الدم الذي يحمل الغذاء إلى خلايا الجسد كلها، فيتجه الدم خارجاً من القلب حاملاً معه الحياة والاستقرار، وهذا معنى الازدياد والنماء والانتشار، وهو يدخل ضمن مفهوم البركة وأثره بحيث تخرج البركة من مصدرها (وهو المسجد الأقصى المبارك) لتعم الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، ثم تنتشر آثارها إلى العالمين جميعاً خارجةً أصلاً من المسجد الأقصى المبارك. ولكن الدم إذا وصل الخلايا في الجسد أعطاها الغذاء وأخذ منها ثاني أوكسيد الكربون السام المميت الذي يحوِّل الدم إلى اللون القاتم، فيأخذه القلب من الخلايا في حركةٍ عكسية باتجاه القلب، لا يعود القلب فيها مضخةً تُخرِج الدم بل مستقبلاً للدم،

ثم ينقله بدوره إلى دورته الصغرى التي تنقله إلى الرئتين ليفرغ هذا الهواء السام، ويصير نقياً صافياً، ليعود بعدها إلى القلب حاملاً الحياة، فينتشر من القلب إلى الخلايا حاملاً الحياة من جديد.

في هذه الصورة نفهم علاقة مكة وبيت المقدس في ثنائية: (هدى) و(باركنا) للعالمين: فالبركة إنما تحمل الحياة والراحة للبشرية، وهي تصدر للبشرية عن بيت المقدس تماماً كما القلب يضخ الدم الذي يحمل الأوكسيجين إلى خلايا الجسد، ولكن البشر يتلوثون دائماً بالخطايا والذنوب، فيأتي هنا دور مكة المكرمة التي تهفو إليها القلوب والأفئدة فتتجه إليها تحمل الخطايا والذنوب والضعف الإنساني في حركةٍ عكسية تماماً لما هو الحال عليه في بيت المقدس، فتنتقي مكة المكرمة هذه القلوب المتعبة، وتزيح هذه الهموم وتعيد جلاء القلوب، وهذه هي فكرة (الهدى) فالهدى عكس الضلال والضياع، والهدى يكون بأن يتجه المرء إلى مصدرٍ ما وباتجاهه، لا بعيداً عنه، فيكون هذا الموقع جاذباً تأرز له القلوب وتعود لطلب الصفاء والسكينة والنظافة، ويكون هو كالسراج الذي لابد لكل ضائع وتائهٍ في الطريق أن يهتدي إلى سبيل الحق والخير من خلاله. فإذا استبان الحق للناس وطهرتهم مكة، جاء دور بيت المقدس لتصدر هذا الهدى والخير للعالمين من خلال بركتها.

وعندما نفهم هذه الحركة المتجهة إلى مكة ضمن مفهوم (الهدى) والخارجة من بيت المقدس ضمن مفهوم (البركة) لربما استوعبنا السبب الذي من أجله كانت مكة حكراً على المؤمنين لا يدخلها إلا طالب الهدى فعلياً، لأنها تمنح الهدى وتعطيه وهي مصدر جذب، بينما كانت بيت المقدس في بركتها مفتوحةً يمكن لكل أبناء ديانةٍ أن يسكنوها ويتعايشوا داخلها، ومن خلال ذلك - حسب فلسفة الإسلام لمفهوم الهدى - يمكنهم أن يطلعوا على سماحة هذا الدين وعلى معنى الهدى من خلال عالمية هذا الدين المتجسدة أساساً في بيت المقدس، فيتنشر الإيمان والطهر بواسطة البركة من هناك.

هذا يعني شيئاً واحداً: أن الأمة الإسلامية لو أرادت أن تنشر طهر مكة وهداها (باعتبارها محضن هذا الدين الأول وأول بيت لعبادة الله في الأرض) للعالمين كلهم، فعليها أن تقوم بذلك من خلال بيت المقدس، وذلك لأنها موقع الانتشار والتأثير العالمي ضمن مفهوم البركة، وبالتالي يتداخل فيها السياسي والديني والروحاني والمادي معاً وتنصهر في معنى واحد يتم تصديره للبشرية كلها لتعيش كلها ضمن الرسالة التي خلق الله تعالى البشر لأجلها.

وهذا الكلام لم يكن غريباً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. حيث فهم عدد من كبارهم هذا الأمر، وعلى رأسهم جميعاً أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ففيما يرويه ابن المرجى، حين كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يحاول فتح جنوب العراق بعد نهاية حروب الردة، أرسل له أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يأمره أن يترك العراق ويذهب للشام، وقال في رسالته: (اعجل إلى إخوانكم بالشام، فوالله: لقريةٌ من قرى أرض المقدس يفتحها الله تعالى أحب إليَّ من رستاقٍ عظيم من رساتيق العراق).[17]

هذه العبارة تدل على أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كان يعرف أن هذه البقعة أهم من أي بقعة أخرى، حتى لو تعارض أمر فتحها مع المنطق العسكري والاستراتيجي! بيان ذلك: أن دولة الفرس كانت في ذلك الوقت أضعف الطرفين إذا ما قورنت بالإمبراطورية البيزنطية، التي كانت قد انتصرت على الدولة الفارسية الساسانية في حربها الطويلة معها في عهد هرقل منذ معركتها الكبرى عام 624م في منطقة أرمينيا.[18] وذلك مصداقاً للوعد القرآني في أوائل سورة الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم: 1-5). وبالتالي فإن المنطق العسكري والاستراتيجي المحض كان يحتم على المسلمين الالتفات إلى الفرس أولاً والقضاء عليهم لسهولة ذلك أولاً بالمقارنة مع حربهم مع الروم الذي كانوا يمثلون في ذلك الوقت القوة المنتصرة، وكذلك للاستعانة بالعراق وما فيه من مغانم وكنوز في حربهم الطويلة المرهقة مع الروم البيزنطيين، فحرب قوةٍ مبتدئة مع قوةٍ عالمية كبرى لن تكون بتلك السهولة بالتأكيد، ولربما كان هذا هو المنطق الذي لمع في ذهن خالد بن الوليد رضي الله عنه، فرؤيته في ذلك كانت رؤيةً عسكرية بحتة، وليست رؤيةً مبنيةً على فهمٍ فلسفي خاص بأهمية المناطق في الإسلام ودورها في حركة الحضارة، فخالد كان قد تأخر في الإسلام إلى ما بعد صلح الحديبية، فليس من السابقين كأبي بكر رضي الله عنه، وبالتالي فلم تواتِه الفرصة للصلاة باتجاه بيت المقدس، ولم يكن مسلماً ليلة الإسراء والمعراج ولم يكن موجوداً في الصف الإسلامي في أي حادثةٍ لها علاقةٌ ببيت المقدس. وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن لا يكون لديه هذا العلم الذي لدى أبي بكر حول أهمية وأولوية الحصول على تلك الأرض المباركة حتى لو خالف ذلك المنطق العسكري والاستراتيجي المعروف.

(17) ابن المرجى، أبو المعالي المشرف. فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام. تحقيق: عوفر ليفنه-كفري. شفا عمرو: دار المشرق. 1995. ص.55.

(18) للمزيد حول هذا التاريخ وقصة هذه المعركة انظر: عمر، عبدالله معروف. بيت المقدس والنبوءة القرآنية الأولى. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2016. ص.-33

ولهذا فقد أرسل له أبو بكر رضي الله عنه تلك الرسالة مبيناً أن الأمر في بيت المقدس ليس متعلقاً بالاستراتيجية السياسية فقط، بل إن الأمر مرتبط بمكانةٍ خاصةٍ لهذه البقعة ترتبط فيها هذه المكانة أساساً بمنطق القدسية والبركة، وهذا ما لا يمكن أن يفهمه إلا من جربه وخبره كأبي بكر، ولا ننسى أن لأبي بكر علاقة خاصة ببيت المقدس، فقد سمي الصديق ببركة المسجد الأقصى المبارك كما روى الإمام مسلم في حديث الإسراء، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم طفق يصف لأبي بكر المسجد الأقصى المبارك وأبو بكر يردد: (صدقت بأبي أنت وأمي.. أشهد أنك رسول الله)، فلما أنهى النبي صلى الله عليه وسلم وصف المسجد الأقصى المبارك (وليس أحداث تلك الليلة.. بل وصف المسجد فقط) قال أبو بكر: (صدقت، أشهد أنك رسول الله) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنت يا أبا بكر الصِّدِّيقُ).

فهذه العلاقة الخاصة بين أبي بكر والمسجد الأقصى المبارك كان من الطبيعي أن تنعكس فهماً لحقيقة دور هذه البقعة في انتشار الإسلام أولاً قبل أي بقعةٍ أخرى، ولهذا فقد وجَّه المسلمين لها أولاً قبل الذهاب إلى أي بقعةٍ أخرى لفتحها ونشر الإسلام فيها. وهنا ينبغي أن تفهم أمتنا اليوم أن طريق العالمية لابد أن يمر من بيت المقدس أولاً كما مر أول مرة، وأنه لابد لأمتنا من بيت المقدس قبل أن تبدأ بالانتشار إلى العالم، فهذه طبيعة هذه الأرض في فكرة الأماكن المقدسة وفلسفتها التي خلقها الله تعالى عليها.

الفصل الثالث
علاقة بيت المقدس بالبناء الحضاري

ماذا نقصد بالحضارة هنا؟

تختلف المفاهيم في الأذهان عند ذكر عبارة (حضارة) أو (حضاري)، فعندما يذكر أحدهم على سبيل المثال عبارة (الحضارة الغربية) تجده يشير ذهنياً إلى مفهوم الحضارة بمعناها المادي الذي يعني التقدم المادي والبناء والتعمير والتقدم التكنولوجي والعمراني والقانوني وغيره من الأمور الحياتية المتعلقة بمادة الحياة. ولكنه في نفس الوقت إذا وجد شخصاً يقف في دوره بشكل سليم في صفٍّ من الناس على سبيل المثال يشير إلى ذلك السلوك بأنه «حضاري»، علماً بأنه قد يحدث في دولةٍ تعتبر متخلفةً على المستوى المادي عن باقي الدول. وهذا ما يفتح المجال للسؤال: ماذا عن الحضارة الإسلامية؟ وهل هذه الحضارة إذا أطلقنا مفهومها تعني في العادة الجانب المادي أم القِيَمِيّ؟ وهل تكون الأمة حضاريةً لو كانت تهتم بالقيم وليست متقدمةً بالمعنى المادي؟ أو كانت متقدمةً بالمعنى المادي ولم تكن متميزةً على مستوى القيم الإنسانية؟

بالكاد يلاحظ البعض هذا الفرق، وفي الحقيقة نجد أن الأمر تقنياً مرتبط ببعضه حتى وإن لم يكن كذلك في ذهن المتكلم، إلا أن الحضارة المرتبطة بالإسلام، والتي عرفت في التاريخ باسم (الحضارة الإسلامية) كانت تختلف عن عدد كبير من الحضارات الأخرى التي لم تكن توازن بين الجانبين: القيمي والمادي، أو لعل الحضارة الإسلامية كانت الأوضح في ربط المعنيين بعضهما ببعض. فكانت في ظاهرها قوةً ماديةً تمكنت من الإمساك بمادة التقدم التقني على المستوى البشري، وفي نفس الوقت حملت في باطنها قيماً راقيةً سادت المجتمع المسلم وإن كانت تختلف في تطبيقها من زمنٍ إلى آخر.

على أن هذه الجزئية في هذا الكتاب ستتناول البناء الحضاري بمعناه المادي باعتباره صاحب الأثر الأكبر في إظهار ريادة الأمة على باقي الأمم. إضافةً إلى أن المادة الحضارية القيمية لم تغب يوماً عن الأمة الإسلامية بالرغم من تخلفها المادي عن باقي الحضارات، فالقيم موجودة في الحضارة الإسلامية ما دام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة موجودَين لدى الأمة الإسلامية حتى لو اختلفت طريقة تناول أبناء الأمة لهما وأخذها بتعاليم الإسلام النظرية الموجودة في القرآن والسنة.

فالحضارة الإنسانية بمعناها القيمي تقاس بالنص الذي تقوم عليه هذه الحضارة.

وهذا ما يجعلنا نقول بارتياح إن الحضارة الإسلامية بمعناها القيمي لا تزول إطلاقاً ما دام المصدران الأساسيان اللذان بنيت عليهما القيم الإسلامي: أي القرآن والسنة، موجودَين ومتوفرَين. وهذا ما يمكن من خلاله الحكم على جزء كبير من الحضارة الغربية بمعناها القيمي اليوم بالسقوط، ذلك أنها لا تقوم على مبادئ قيمية صحيحة بشكل كامل، وإن كان أغلبها صحيحاً. ولتوضيح ذلك: نرى أن أهم نقطةٍ توضح القيم التي تقوم عليها الحضارة الأوروبية والأمريكية من الناحية القيمية اليوم هي فكرة الرأسمالية بمعناها القيمي، وأهم نقطةٍ تبدأ منها فكرة الرأسمالية هي قيمة الحرية المطلقة. والحرية بحد ذاتها قيمةٌ إنسانية سامية لابد منها لتعيش أي أمةٍ وتصمد قروناً، إلا أن الحرية إذا أصبحت مطلقةً لا يقيدها ضابط تحولت إلى قيمةٍ قد تهدد تماسك المجتمع برمته، فالحرية المطلقة تعني التحرر من أي قيد في كيفية الحصول على المال، أو في كيفية التعامل الاجتماعي مع النفس أو باقي الأفراد، فيكون من نواتج هذه الحرية المطلقة أن يكون الربا والمغالاة أمراً تنافسياً مفتوحاً فيزداد الفقير فقراً ويزداد الغني غنىً فاحشاً على حساب باقي الناس، وأن يصبح تحويل الجسد إلى مادةٍ للمتعة الشخصية بأي شكلٍ حتى ولو كان شاذاً دون رادعٍ أمراً من الحرية الشخصية، دون نظرٍ إلى العواقب التي تعني تدمير المجتمع في بنيته الإنسانية الأساسية وهي العائلة. وهكذا يمكن الحكم على هذه الحضارة بالتخلف القيمي بالرغم من تقدمها المادي.

إذا فهمنا ذلك، فإنه يمكن القول إن الحضارة الإسلامية بمفهومها القيمي موجودةٌ بل متقدمةٌ على باقي الحضارات والأمم بالرغم مما قد يلاحظه البعض من عدم التزامٍ لدى بعض أبناء المجتمع المسلم بهذه القيم الإسلامية. إذ إن عدم التزام المجتمع بالقيم التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية لا يعني بحالٍ عدم وجود تلك القيم والقوانين والتنظيمات الحضارية التي تعطي الحضارة الإسلامية صورتها القيمية.

إذا فأين النقص؟ وما هو موطن التخلف الحضاري لدى أمتنا؟

هذا هو السؤال الذي ربما يدور في ذهن القارئ الآن، والإجابة عنه باختصار أن الأمة الإسلامية إنما هي متخلفة اليوم في الجانب المادي عن باقي الحضارات، والمعنى هنا لا ينسحب على وجود السيارات والبناء وغيره، فهذه الأمور كلها موجودة ولكنها ليست مقياساً للتقدم الحضاري المادي، بل إن المقياس هنا هو مدى إمكانية تصنيع هذه الأمة حياتها المادية بيدها. وتقدمها في إنتاج واختراع واكتشاف وسائل جديدة للحياة المادية، أو بمعنى

آخر: أن الأمة الإسلامية الآن ليست منتجةً مادياً وإنما هي مستهلكة، وبالتالي فهي ليست مؤثرةً بل متأثرةً.. وفيصل تقدم الحضارة المادية هو الإنتاج والتأثير في باقي المحيط. كما أن ترجمة القيم إلى أفعال وقوانين هي بحد ذاتها دلالة معنوية لحضارةٍ مادية، وهذا ما ينقص الأمة المسلمة اليوم أيضاً. إذن فنحن أمام تخلف حضاري من نوع آخر لدى الأمة الإسلامية، ففي حالات التخلف الحضاري في أوروبا خلال العصور الوسطى كان موطن التخلف شاملاً الناحية القيمية والمادية بشقيها المعنوي والإنتاجي، لأن القيم لم تكن موجودة فعلياً في المجتمع الأوروبي بسبب تغيير الشكل العام للمصادر التي يفترض أن تقوم عليها الثقافة القِيَمِيَّة الأوروبية، وهو ما تمثل واضحاً بالنزاعات المختلفة الناتجة عن النصوص الدينية وترجمتها في المجامع الكنسية، ونحن هنا لا يهمنا موضوع نقد الديانة المسيحية ونصوصها، ذلك أن هذه النصوص قد رست عليها الكنيسة من بين عشرات النصوص المختلفة، ولذلك فهي فعلياً من اختيار البشر وإن كانت منسوبة لله عز وجل، وهذا ما يميز الديانة الإسلامية عن غيرها، حيث أن النص القرآني في الإسلام لا يعتبر بأي حال (لا من حيث الشكل ولا المضمون) معبراً عن شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإنما يبدو النص نفسه واضحاً باعتباره من مصدر خارجي، وهذا يختلف عن التوراة والإنجيل كنصوص مقدسة بشكلها ومضمونها الموجود بين أيدينا اليوم، حيث يلاحَظ أن النص فيه يأتي على شكل روايةٍ للأحداث التاريخية من رواية البشر، وهذا يدل على أنه من كتابة البشر.. هذا هو الفرق الذي نتكلم عنه في الجزء القِيَمِي المتعلق بالنصوص المقدسة.

يمكن إذن من خلال ذلك تشخيص المشكلة لدى الأمة الإسلامية اليوم بالجانب المادي، والتطبيق العملي للقيم الموجودة في النصوص التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية. فعندما يتكلم المرء في هذه الحالة عن البناء الحضاري، فإنه في الحقيقة يتناول الجانب المادي للحضارة كما شُرِحَ آنفاً، إلى جانب تطبيق المفاهيم والقيم التي تقوم عليها الحضارة بجانبها القيمي.

فأما عن التطبيق العملي للمفاهيم والقيم، فإنه يأتي نتيجةً طبيعية لحصول الأمة على حريتها وخروجها من نفق التبعية للحضارات الأخرى، ومن ثم تربية الأجيال المسلمة على فكرة التقدم الحضاري المادي على المستوى العالمي، وهذا ما يصنع حضارةً متقدمة في تطبيق القيم على المستوى الحياتي، وأمةً متقدمةً على المستوى المادي التأثيري فيما حولها[19] ولكن هنا يتبادر للذهن سؤال مهم: ما علاقة القدس بالبناء الحضاري؟

---

(19) وفي هذا المعرض يظهر مشروعان مهمان قدمهما اثنان من أقطاب العصر الحاضر في الجانب الحضاري: أحدهما مشروع الدكتور طارق السويدان، والثاني مشروع الدكتور جاسم سلطان، وهذان المشروعان يتابعان هاتين النقطتين: التطبيق الحياتي للقيم، والتقدم المادي. وبالتالي يمكن ملاحظة كون المشروعين على مستوىً عالمي في غاية الأهمية

التقدم الحضاري والبركة:

إن واحدةً من أهم مميزات شخصية بيت المقدس أساساً هو التأثير والانتشار ضمن مفهوم البركة الذي يحدد معالم هذه الشخصية كما وضح القرآن الكريم، وذلك يعني باختصار أنه في الإسلام - بالذات - لابد من ارتباط كل ما يتعلق بالتقدم والانتشار على المستوى العالمي بالبركة بمضمونها الذي يشمل الانتشار والعالمية كأحد أهم وجوه وآثار هذه البركة، وهذا يأخذ موضوع التقدم والبناء الحضاري إلى مربع القدس ويؤكد ضرورة وجود هذه المنطقة في قلب المشروع الحضاري لتقدم هذه الأمة ووصولها إلى مصافِّ الأمم المؤثرة في العالم كله. فأي بناء حضاري في الأمة الإسلامية التي ترتبط أساساً بالقرآن لابد منه أن يمر من القنوات التي حددها القرآن للوصول إلى العالم، وهذه القنوات في جانبها الجغرافي تتحدد في بقعتين اثنتين: واحدةٍ جاذبة، والأخرى مُصدِرة، الأولى مكة المكرمة مركز الهدى للعالمين، والثانية بيت المقدس مركز البركة للعالمين. وهذا يأخذنا مرةً أخرى إلى مفهوم العالمية في شرح فكرة البركة. وتصوير ذلك فلسفياً بالدم المنبثق عن القلب ليحمل الحياة إلى باقي الجسد.

هذا القلب هنا هو بيت المقدس، وبالتالي يمكننا هنا أن نفهم لماذا أصر أبو بكر رضي الله عنه أن يبدأ من بيت المقدس رحلةَ الحضارة الإسلامية ونقلها إلى العالم كله كما أسلفنا في الفصل السابق، وهذا ما يفسر فكرة عالمية بيت المقدس وعلاقتها بالبناء الحضاري.

مختصر الكلام هنا: أن أي مشروع حضاري تريد هذه الأمة بناءه وتصديره للعالم كله لابد أن يمر من بيت المقدس، لأنها هي البقعة التي ترتكز عليها فكرة الانتشار والعالمية حسب نص القرآن الكريم. ولا يفوتنا التنويه هنا إلى أن هذا المفهوم مرتبط أساساً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أي أنه مرتبط بالبناء الحضاري القائم على أساسات الدين الإسلامي. وإنما نبهنا على ذلك لأن هذا الدين ليس كباقي الأديان البشرية التي ترتبط فقط بالشعائر والروحانيات، حيث أن الإسلام - سواء اتفق ذلك مع رغبات السياسيين أم اختلف - لا تعارض فيه بين السياسي والروحاني، والفلسفي والمادي، والمادي والمعنوي، وهذه الميزة الأساسية لهذه الحضارة. ولهذا السبب أساساً اختلف سياق صعود وهبوط الحضارة الإسلامية في الماضي عن سياق صعود وهبوط الحضارات الأخرى كلها، فدورة حياة الحضارات الإنسانية تبدأ عادةً من الصفر وتتصاعد على مدى فترات زمنية طويلة - مقارنة بالعمر الإنساني - قد تمتد قروناً من الزمان، لتصل بعد ذلك إلى الذروة فتصبح قوةً عالمية مسيطرة ومؤثرة، ثم تمر بفترة استقرار تكون في العادة متوسطة الطول مقارنةً بفترة الصعود،

حتى تصل إلى مرحلة الشيخوخة والسقوط الذي عادةً ما يكون سريعاً جداً وصولاً إلى الاضمحلال والانتهاء.

أما الخط البياني للحضارة الإسلامية عندما قامت أول مرة قبل أربعة عشر قرناً فقد اختلف تماماً عن باقي الحضارات؛ إذ إن خط الصعود الحضاري للأمة الإسلامية كان سريعاً جداً، بحيث وصلت القمة من ناحية القوة المادية لتتحول إلى قوةٍ عالمية كبرى – بل القوة العالمية الأولى – في حوالي قرن من الزمان فقط، وبعدها هدأ خط الارتفاع لتسير الحضارة الإسلامية بشكل مستقر زمناً طويلاً تم خلاله وصولها إلى مصاف التقدم التقني والفلسفي والأدبي وغيره.. واستمرت الحضارة الإسلامية قوةً كبرى في هذا الجانب ردحاً طويلاً من الزمن، حتى بدأت الانحدار في فترات لاحقةٍ من العصر العثماني وعلى مدى عدة قرون لتصل إلى مرحلة الشيخوخة بل والسقوط المادي في القرن العشرين. ففترة الصعود كانت قصيرة، وفترة الاستقرار ومن ثم فترة الهبوط كانت طويلة جداً، وهذا في الحقيقة نموذج جديد لم نره في الحضارات السابقة، بل هو معاكس لها ويشكل حالةً فريدةً من نوعها. وما ذلك إلا لأن الحضارة الإسلامية هي الأولى التي لم يكن بين جانبها القيمي القائم على النصوص المقدسة والدين وبين جانبها المادي أي تعارض، وهذه نقطة ينبغي استغلالها.

الحضارة قبل القدس؟ أم القدس قبل الحضارة؟

نعني بهذا السؤال الجانب المادي من الحضارة الإسلامية، وهنا ينبغي التأكيد على أنه ضمن المعاني التي تقدمها النصوص المقدسة في الإسلام لشخصية القدس وعلاقتها بالجانب الحضاري الإنساني - باعتبارها ممثلة الإنسان والحضارة المادية في فلسفة الأماكن المقدسة في الإسلام - يتبين أن القدس هي المفتاح الأساسي للوصول إلى العالمية. فمهما وصلت الأمة إلى مستويات عالية في الحضارة والرقي المادي، فإنها لن تكون قوةً مؤثرةً ذات أثرٍ عالمي متكامل إلا لو حصلت على القدس، وبنفس الفهم: إذا فقدت الأمة القدس، فقدت تقدمها وأثرها العالمي. وهنا لابد من توضيح نقطةٍ قد تخفى على البعض، فالبعض قد يفهم التأثير العالمي على أنه التأثير الاقتصادي بحد ذاته على سبيل المثال، أو الأثر السياسي وحده مثلاً.. وهذا فهم غير دقيق؛ فلو كان المقصود بالتأثير العالمي الجانب الاقتصادي فقط لقلنا إن الصين وربما اليابان أيضاً هما الأكبر تأثيراً في العالم،

وهذا غير دقيق، إذ إن الحضارة والثقافة الصينية واليابانية لا تمثلان ثقافةً عالمية كبرى تؤثر في الجانب المجتمعي، وهذا ما يؤخرهما عن كونهما المؤثر الأول في العالم، في حين أننا نرى أن القوة التي تسيطر على بيت المقدس اليوم هي التي تصنع الثقافة الغربية التي تؤثر في العالم سواء اقتصادياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو حتى ثقافياً.. وهذا هو نوع التأثير المتكامل الذي نتكلم عنه.

هذا التأثير المتكامل لا يكون منطلقاً إلا من بيت المقدس حسب فهم طبيعة وشخصية هذه البقعة. وبالتالي فإن الحصول على بيت المقدس لابد أن يسبق الانتشار الحضاري إلى العالم كله. ولكن هذا لا علاقة له فعلياً بكيفية الوصول إلى بيت المقدس وهل يستحقها المؤمن الموحد أو غيره، فإن تلك قضية أخرى ناقشها القرآن الكريم، ولعل هذا الكتاب يناقشها في صفحات لاحقةٍ بإذن الله.

فكرة النموذج التاريخي لفهم علاقة بيت المقدس بالبناء الحضاري:

من سنن الله عز وجل في الكون وجود علم يسمى علم التاريخ، وهذا العلم حاز ثلث القرآن الكريم على شكل قصص للأمم السابقة، ومخطئ من ظن أن هذه القصص ليست إلا للتسلية والترويح عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فالله عز وجل يقول في القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: 111)، والملاحَظ أن هذه الآية الكريمة جاءت في سورة يوسف، التي تكونت كلها من قصةٍ واحدة متكاملة من أول السورة إلى آخرها، وكانت هذه الآية ختام السورة وختام الآيات العشر الأخيرة التي علقت على هذه القصة وأحداثها، وهذه القصة سماها القرآن (أحسن القصص) في قوله تعالى في بداية السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: 3). فتبيان الحكمة من إيراد هذه القصص في القرآن الكريم باعتبارها عبرةً لا حديثاً يُفترى، هو في حد ذاته تأكيد على أنها ومثيلاتها في القرآن الكريم إنما هي تاريخ يحكيه القرآن لأخذ العبرة، والتاريخ علم الملوك كما قال أ.د. سليمان الرحيلي رحمه الله في مقدمة أحد كتبه، فهو العلم الذي يتوصل به إلى أصول فهم حركة البشر، وهو علمٌ له قوانين سماها القرآن سنناً.

وقد لا يفهم شخص كيف يكون للتاريخ قوانين ومعادلات ثابتة بينما الإنسان مخير في أفعاله! فنقول: إن الشخص بمفرده يملك الاختيار، أما الإنسان بمجموعه فهو ليس مخيراً بل يمشي ضمن قوانين وُضِعَت في النفس الإنسانية المعقدة، ولتبيان ذلك نعطيك مثالاً: هَب أنك تسير في شارع وحدك فسمعتَ جَلَبَةً عالية كصوت انفجار على سبيل المثال. إن أول رد فعلٍ من طرفك قد يكون بالهرب مباشرة، أو النزول للأرض، أو الصراخ، أو قد يكون بالالتفات إلى مصدر هذه الجلبة ثم يأتي رد الفعل المناسب حسب ما تراه العين. أما لو افترضنا أنك كنتَ تسير في الشارع بين عدد كبير من الناس فإذا بالناس جميعاً تركض معاً دون سبب فإن رد الفعل سيكون مختلفاً عن الحالة الأولى، لأنه سيكون مبنياً على رد فعل المجموع: الركض مع المجموع. فإنك هنا ستجد نفسك بلا وعيٍ تنفذ أي رد فعل بعقلية القطيع - إن صح التعبير - فتعمل بما يعمل به الجميع. وهذا المشهد استفاد منه بعض صناع برامج الكوميديا، فترى رجلاً يسير في شارع وحوله عدد كبير من الممثلين المتخفِّين، وفجأة يبدأ هؤلاء بالركض كأنهم يهربون من شيءٍ ما دون أن يكون هناك أي جلبة أو صوت مخيف، فإذا بالشخص الذي يطبِّقون هذا الموقف عليه يركض مع الجميع دون أن يعي سبب هذا الركض! إلا ما ندر من الناس.

إذن فقوانين التاريخ تنطبق على البشر حيث كانوا وكيف كانوا، وهذا يعني ظهور ما يمكن أن نسميه (النموذج التاريخي) الذي إذا تشابهت ظروفه مع ظروف أي حدثٍ تاريخي تالٍ كانت النتيجة واحدة، بل ربما كانت الكيفية واحدة، ويتجاوز البعض الحد فيقولون في ذلك (التاريخ يعيد نفسه)، والحق أن التاريخ لا يعيد نفسه، بل إن ظروف التاريخ إن تشابهت فيما بينها تشابهت النتائج.

وضمن هذا السياق تبرز أهمية فهم النماذج التاريخية التي مرت على بيت المقدس في علاقتها بالحضارة لنفهم أيهما أقرب لأمتنا اليوم ووضع بيت المقدس في هذه الفترة.

ما دامت الحضارة الإسلامية بمكوناتها ومسيرتها شيئاً مميزاً عن ما سبقها من حضارات كما ورد آنفاً، فإن نماذجها التاريخية التي تدرسها وتعمل بموجبها ينبغي أن تكون في العادة خاصةً بها فيما يتعلق بهذه الأمة بالذات. وهنا يبدو لنا ضمن ما تعيشه أرض بيت المقدس من احتلالٍ اليوم أن هذه المنطقة مرت بحالتين مشابهتين حسب فهم هذه الأمة:

- **الحالة الأولى** كانت خلال مرحلة الفتح الإسلامي الأول، الذي بدأ العمل عليه في عصر النبي صلى الله عليه وسلم واكتمل في بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

• **الحالة الثانية** كانت خلال مرحلة الحروب الفرنجية الصليبية التي شهدت الفتح الإسلامي الثاني لبيت المقدس، والذي بدأ التحضير له في عهد الملك عماد الدين زنكي، واكتمل في عهد الملك صلاح الدين يوسف.

وبما أن التاريخ عبرة، ولنفهم أي النموذجين أقرب إلى ما نعيشه اليوم، نقارن بين الحالة الحضارية للأمة الإسلامية في المرحلة الأولى، والحالة الحضارية في المرحلة الثانية، ومن خلال ذلك نفهم أيهما أقرب للحالة الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم، وذلك فيما يتعلق بالحالة الحضارية للأمة الإسلامية فقط وليس للقوة التي تحتل بيت المقدس. ومن ذلك يمكن أن نتمكن من تحديد ملامح التطور الحضاري القادم فيما لو شاءت الأمة الإسلامية أن تسترجع دورها الحضاري بين الأمم، ونفهم دور بيت المقدس في هذا السياق.

إن نظرةً فاحصةً في الحالة الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم تَشي بوضوح أن النموذج الأول أقرب بكثير للحالة الحضارية لهذه الأمة من النموذج الثاني، فالأمة في النموذج الأول (مرحلة الفتح الإسلامي الأول) كانت تمثل ذيل الأمم من الناحية الحضارية بمعناها المادي، فلم يكن لها تأثير فعلي في المشهد الحضاري العالمي، ولم يكن لها في ذلك الوقت إرادة فعلية حرة، بل كانت تبعاً للحضارات الأخرى المحيطة، لا سيما الحضارتين الأقرب لها: الفارسية والبيزنطية، وإن كانت البيزنطية أقوى تأثيراً بعد انتصارها على الفرس واستردادها لبيت المقدس حتى سقوطها في المشرق على يد المسلمين. وكذلك الحال اليوم، فالحالة الحضارية للأمة الإسلامية متأخرة جداً على المستوى العالمي، وقد كانت قبل سقوط الاتحاد السوفيتي السابق متأثرة بالقوتين الكبيرتين المؤثرتين في العالم: بعض دول العالم العربي متأثرة بالنموذج الحضاري الروسي، وبعضها متأثر بالنموذج الحضاري الأمريكي. حتى إذا سقط النموذج الروسي أصبحت الحضارة الأمريكية هي المؤثر الأول في الأمة الإسلامية.

أما في النموذج الثاني (مرحلة الفتح الإسلامي الثاني) فقد كان الأمر من الناحية الحضارية مختلفاً تماماً، فقد كانت الأمة الإسلامية متقدمةً من الناحية الحضارية المادية، وكان ما ينقصها فعلياً هو التطبيق الحياتي للقيم الإسلامية، بل إنه من الناحية المادية للحضارة كانت الحضارة الغربية التي يمثلها الفرنجة هي التي تأثرت بالحضارة الإسلامية، وكان معيار التقدم بين غزاة بيت المقدس مدى أكلهم الطعام العربي واكتسابهم العادات العربية الإسلامية كما يروي في ذلك غير واحدٍ من مؤرخي ذلك الزمن مثل أسامة بن منقذ في كتاب (الاعتبار). وهذه ليست الحالة اليوم، فالحالة اليوم حالة تبعية تامةٍ،

كما كانت في النموذج الأول لا كالنموذج الثاني، وحالة تخلف حضاري كامل كما في النموذج الأول لا كالنموذج الثاني.

بالإضافة إلى ذلك، نلحظ أن النموذج الأول تميز بأنه كان نموذج بناءٍ حضاري من الصفر إلى القمة، وأما في النموذج الثاني فقد كان البناء الحضاري مكتملاً من الناحية المادية وكانت المسألة تتعلق بالتطبيق الحياتي للقيم فقط. ولهذا فإن النموذج الأول أقرب للحالة الحضارية التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم من ناحية كونها في نقطة الصفر مرة أخرى من الناحية الحضارية كما كانت أول مرة في النموذج الأول.

وبما أن النموذج الأقرب حضارياً إلى وضع أمتنا الحالي فيما يتعلق ببيت المقدس هو النموذج الأول، فإن التطبيق العلمي للنموذج التاريخي على الواقع يعني أن الطريق الذي يتم من خلاله الوصول إلى البناء الحضاري مرة أخرى هو نفس الطريق الذي سارت فيه الأمة في المرة الأولى، وفي هذا الطريق كانت بيت المقدس هي الخطوة الأولى للانتشار العالمي بعد بناء الحضارة بمعناها القيمي والحياتي، وقبل الانتقال إلى مرحلة البناء المادي للحضارة.

وبالنتيجة: فإن تحرير بيت المقدس ينبغي أن يكون في حالة أمتنا الحالية سابقاً لإعادة بناء الحضارة الإسلامية بمعناها المادي، وهذا التحليل يتسق مع مشاريع النهوض الحضاري التي وضعها غير واحد من المهتمين بهذا الجانب في زماننا مثل د. طارق السويدان ود. جاسم سلطان وغيرهما، إلا أننا هنا نعطي نقطة البدء لهذه المشاريع نحو الانتشار والعالمية، فمهما بنت الأمة الإسلامية حضارتها المادية الجديدة فإنها لن تصل إلى مستوى العالمية الذي وصلته قبل أربعة عشر قرناً إلا من خلال فتح بيت المقدس أولاً، ومهما وصلت الأمة الإسلامية مصاف الإنتاج الحضاري المادي المتقدمة، فإنها ستبقى في تأثيرها العالمي محدودةً في بعض الجوانب فقط أو لا تصل كل العالم، حتى تصل إلى بيت المقدس أرض الانتشار والعالمية التي تنطلق من فكرة البركة. وهنا تبدأ الأمة رحلتها نحو التأثير العالمي الثقافي والحضاري الشامل كما كانت أول مرة. فالأمة التي لا تسيطر على بيت المقدس لا يمكن أن تكون ذات تأثير شامل في العالم، بل لابد في هذه الحالة أن يكون تأثيرها محدوداً.

الفصل الرابع
بيت المقدس محور التغيير

هل نحتاج التغيير؟

إن الاستفسار المتعلق بحاجة الأمم إلى التغيير أساسه النظر في الحال وفي المآل؛ ذلك أن النظر في حال الأمة بين الأمس واليوم يفضي إلى مقارنةٍ ملحة بين الواقعين، وهذا يظهر واضحاً في الشعارات التي تطرح بين الفينة والأخرى سواء في الكتابات أو في المحاضرات أو حتى في الأناشيد والأغاني التي تتغنى بالماضي المجيد، وهذا يعني بالضرورة الشعور بالنقص في الواقع مقارنةً بالماضي.

ومن الملاحظ في هذه النقطة أن التغني بأمجاد الأمة وماضيها العريق يأتي بالمعنى الحضاري لهذا المجد، وهو الجانب الذي تمت دراسته في الفصل السابق؛ أي المفهوم المادي للحضارة سواء كان ذلك في التطبيق القيمي أو في الجانب الحياتي للحضارة الإسلامية، اللذين جعلا منها في مقدمة العالَم المتحضر ردحاً طويلاً من الزمان. وهو ما يؤكد طبيعة الحلم الذي يراود كثيراً من العاملين وغير العاملين في مشاريع النهضة من أبناء هذه الأمة.

وهذا يفضي بدوره إلى النظر والتأمل في المآل؛ فمن يعقد المقارنة بين ماضي هذه الأمة من الناحية الحضارية وواقعها لابد له من النظر في مآل أمر هذه الأمة في محاولةٍ لإجابة السؤال الملح: هل هذه الأمة قادرة على تغيير واقعها والارتفاع مجدداً في الخط البياني للحضارة الإنسانية لتصبح مرة أخرى في مصاف الحضارات الأخرى؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه نظر المتحسر على الماضي المجيد الذي لا يجد أملاً في التغيير والعودة إلى ذلك المجد؟

إن هذا الأمر يبعث على التفكر في مدى ضرورة التغيير ومحوره؛ فأما التغيير، فإن الأمة تكاد تكون مجمعةً اليوم على ضرورته وحتميته، خاصة وأن من طبيعة النفس البشرية الميل للارتفاع لا الهبوط، وحب المقدمة لا الساقة، والقيادة لا الانقياد، هذا أولاً، وثانياً: إن الشعور بالظلم الواقع على هذه الأمة حين ترى ما حل اليوم بمقدراتها وإمكاناتها الهائلة التي تضيع هباءً لصالح الأمم الأخرى يجعلها تقارن وضعها الحالي بالسابق يوم كانت في المقدمة حضارياً، وتحن إلى أن تعود مقدراتها لأبنائها بدلاً من الآخر.

يضاف إلى ذلك الحاجة الملحة في طبيعة هذا الدين إلى القيادة والتقدم نحو أستاذية العالم كله وقيادته نحو فهمٍ أفضل لعلاقته بالخالق والمخلوقات، وهو ما يتجلى في ربط مفهوم العبودية في القرآن الكريم بعمارة الأرض وفكرة الاستخلاف التي نص عليها القرآن الكريم في أول قصةٍ يقرأها القارئ فيه مع أوائل سورة البقرة، أي قصة خلق آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام، والتي تمثل بداية الوجود البشري على الأرض وتحدد طبيعة هذا الوجود وسببه ومساحة عمله.

إذن فالقناعة التامة بضرورة التغيير وحتميته يكاد لا يختلف عليها اثنان من أبناء هذه الأمة، وهذا هو السبب الرئيس في ظهور مشاريع التغيير والتطوير الحضارية التي ظهرت في الأمة المسلمة منذ نهاية الفترة العثمانية وبداية عصر الاستعمار، وهي الفترة التي مثلت الوصول إلى الحضيض الحضاري، فظهرت في ذلك الوقت عدة دعوات في أواخر العصر العثماني منذ القرن الثامن عشر وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين للتجديد والتغيير الفكري مثل دعوات محمد بن عبدالوهاب ومحمد عبده وحسن البنا وغيرهم من المفكرين والمنوَّرين الذين نادوا بضرورة التغيير على اختلاف الطرق التي نادى بها كل واحد منهم، ثم مشاريع النهضة الحضارية التي ذكرت سابقاً كمشروع جاسم سلطان ومشروع طارق السويدان وغيرهما من المشاريع التي تحمل عنوان (النهضة).

على أن ما تفتقر إليه تلك المشاريع المختلفة تحديد منطلق النهضة الحضارية لهذه الأمة ومركز انتشارها، وهنا نعود لما ذكرناه سابقاً حول طبيعة بيت المقدس الحضارية باعتبارها ممثل الإنسانية في المنظومة الإسلامية المتكاملة للعلاقات البشرية، وقولبة هذا المفهوم ضمن قالب «البركة» الذي يشير في أهم تجلياته وآثاره إلى الانتشار والتمدد والثبات. وبالتالي فليس غريباً أن تكون أرض القدس هي مركز الانطلاق الحضاري العالمي ومركز التغيير العالمي القادم عند عودة نهوض هذه الأمة مرة أخرى، وعندما تحين الدائرة للأمة المسلمة لتأخذ مكانتها مرة أخرى في مقدمة الأمم الأخرى. فمحور التغيير لابد أن يكون إذن بيت المقدس، والقرآن الكريم بين حقيقةً مهمةً هنا وهي أن محور التغيير لدى هذه الأمة بالذات لابد أن ينطلق من بيت المقدس، والتغيير سمةٌ واضحةٌ في تاريخ بيت المقدس وعلاقتها برموز هذه الأمة من الناحية الدينية والحضارية أيضاً، ويمكن أن نأخذ مثالين رئيسين لتأكيد هذه النقطة والتدليل عليها: وهما نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما جرى هنا اختيار هذين المثالين العظيمين من التاريخ لسببين:

أولهما أن هذه الأمة ترتبط بالدين ارتباطاً شديداً في كافة مناحي حياتها، فالدين الإسلامي ليس شعائر مخصصة فقط كباقي الأديان، وإنما هو أسلوب حياةٍ متكامل لابد لأي شخص ينتمي إليه أن يعيشه كما ذكرنا سابقاً، وهو ما يجعل فكرة العلمانية في الإسلام مستحيلة التطبيق لاستحالة فصل الإسلام عن الحياة العامة والخاصة للبشر. وبما أن حضارة وتاريخ وطبيعة هذه الأمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين فإن المثال الذي نأخذه هنا يربط بين الدين والبشر: وذلك هو دور النبي الذي يوصل الرسالة الدينية إلى البشر فيكون هو الرابط الأساسي بينهما والقائد الفعلي للأمة.

وثانيهما أن النبيين الكريمين المختارين هنا هما النبيان اللذان عليهما مدار الإسلام في فكره وشعائره، فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول الإسلام أصلاً، وهو الذي يرتبط بشخصه العمود الثاني من أعمدة المصادر الأصلية في الإسلام: أي السنة. وبالتالي فإن حياته يجب أن تكون مثالاً يحتذي به الراغبون بالتجديد والتحديث كما قال هو نفسه عندما أمر المسلمين فقال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)[20]. أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو النقطة المرجعية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أصلاً، والقرآن الكريم يشير إلى كونه عليه الصلاة والسلام أصلَ ومرجعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير موضع كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: 78). فإذا وجدنا بيت المقدس محوراً للتغيير في حياة هذين النبيين الكريمين فإنها لابد أن تكون كذلك بالنسبة للأمة التي تنتسب لهما انعكاساً على وضعهما في المنظومة الفكرية والفلسفية لهذه الأمة.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام قبل بيت المقدس وبعدها:

نظرةٌ سريعةٌ إلى الآيات القرآنية الكريمة التي تتناول حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام تبين لنا حقيقةً شديدة الوضوح: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قبل بيت المقدس شيئاً وأصبح بعد بيت المقدس شيئاً آخر. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام في جميع الآيات الكريمة التي تتناول حياته في مسقط رأسه بالعراق كانت تشير إلى أنه كان غير معروفٍ وكان محدود التأثير في قومه باعتبار أنهم لم يقبلوا دعوته، ولم يؤمن به إلا قريبه لوط عليه الصلاة والسلام كما نص القرآن الكريم ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ (العنكبوت: 26)، بل إن التعبير القرآني عن طبيعة حياته في تلك المنطقة تنبئ عن أنه عليه السلام

(20) مسند أحمد بن حنبل: مسند الشاميين / حديث العرباض بن سارية. انظر: مسند الإمام أحمد: ج28، ص373.

كان غير معروفٍ تماماً في قومه في ذروة خصومته معهم عندما حطم أصنامهم (الأمر الذي استدعى إلقاءه في النار ثم هجرته)، وهنا يأتي النص القرآني ليبين هذه النقطة: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء: 60)، وتبع ذلك إلقاؤه في النار ثم هجرته من العراق بصحبةٍ لوطٍ عليه الصلاة والسلام، والتي يسميها القرآن «نجاةً» كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71).

لكن الآيات القرآنية الكريمة تتحول تماماً في خطابها المتعلق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام بمجرد وصوله إلى الأرض المقدسة، فتتحول الآيات الكريمة للحديث عن إمامته للبشرية وقيادته للناس: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ (البقرة 124)، بل وأذانه في الناس ودعوته لهم لحج بيت الله الحرام تكون مجابةً فوراً كما ينص القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ (الحج: 27)، والتعبيرات القرآنية هنا مهمة جداً في توضيح هذه الحقيقة. وهو ما دعا د. أسامة جمعة الأشقر في كتابه (البركة) إلى القولِ إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تحول إلى قائدٍ بشري ذي نفوذٍ سياسي واجتماعي وديني بكل معنى الكلمة بعد قدومه إلى بيت المقدس.[21] وهكذا كانت هذه الأرض هي المحور الجغرافي الذي تغيرت حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمجرد الوصول إليه.

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيت المقدس وبعدها:

إن الناظر بتفحص إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يمكنه أن يدرك بوضوح وسهولةٍ شديدةٍ التأثيرَ الكبير لرحلته الشريفة إلى بيت المقدس ليلةَ الإسراء والمعراج على حياته صلى الله عليه وسلم، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء غيره بعد الإسراء. وكانت هذه الرحلة تحولاً تاريخياً في حياته صلى الله عليه وسلم، بعد أن جاءت في أهم لحظات حياته عليه الصلاة والسلام عندما مر بأشد يومٍ في حياته حسب ما ذكر هو عليه الصلاة والسلام في حديث السيدة عائشة المشهور أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم: (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت،

(21) انظر: الأشقر، أسامة جمعة. البركة مقوماتها ومنازلها بين مكة وبيت المقدس. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2015. ص.135-139

فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[22].

ذلك اليوم الخطير كان يوم الطائف، إذ إن ابن عبد ياليل بن عبد كلال كان من سادة ثقيفٍ بالطائف، وذوق النبي صلى الله عليه وسلم جعله لا يذكر سوء أدب أهل الطائف معه في ذلك الوقت عليه الصلاة والسلام، ورميه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان كما روى ابن إسحق وغيره، ولم يتمكن من العودة إلى مكة عليه الصلاة والسلام إلا في جوار المطعم بن عدي من سادة قريش المشركين. وهذا منتهى الألم النفسي والروحاني الذي تعرض له عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك عنده أشد عليه من يوم أحد الذي أوذي فيه إيذاءً جسدياً كبيراً كاد يصل حد القتل! إلا أنه من الواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستسهل الأذى الجسدي على أذى النفس، ذلك أن أذى النفس أوقعُ وأبعد أثراً وأشد تأثيراً على مسير المرء.

وهكذا في هذا الظرف الصعب الذي يتبين فيه كم كان عليه الصلاة والسلام في حالٍ شديدةٍ جاءت رحلة الإسراء إلى بيت المقدس لتقلب المعادلة وتغير المفاهيم وتصحح المسار، فيؤم النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في بيت المقدس كما قدمنا في فصلٍ سابقٍ لأن هذه الأرض هي أرض الأنبياء التي تمثل البشرية، فكان الأمر بذلك إعلاناً من سادة البشر الحقيقيين لسيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمتِة من بعده عليهم وعلى أممهم من بعدهم. وجاء العروج إلى السماء من هذه البقعة ليوصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منتهى الإيمان المقرون بالنظر فيما يسميه العلماء «عين اليقين»، وبهذا انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في بُعدٍ جديدٍ تماماً لم يكن موجوداً لديه سابقاً، فكلما لقي من المشركين عنتاً تذكر الجنة وما فيها مما رآه بأم عينه صلى الله عليه وسلم، وكلما ضاع من بين يديه مشرك إلى النار ومات على الشرك حَزِنَ حُزنَ من عرف المآل ورآه بأم عينه كذلك في تلك الليلة.

---

22 صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة. انظر: صحيح البخاري: ج.4، ص.115

وما كان بعد هذه الليلة كان يختلف تماماً عن ما جرى قبلها، فبعد هذه الليلة جاءت مباشرةً بيعة العقبة وبدأت الهجرة إلى المدينة المنورة بعدها بقليل. وذلك ما يشبه صفحةً جديدةً فتحها الله عز وجل لنبيه الكريم ابتداءً من بيت المقدس، تماماً كما كان الأمر مع جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فبيت المقدس إذن صنعت الفرق بين محمد النبي المستضعف المطارَد هنا وهناك، ومحمد الدولةِ والقيادة والزعامة التي وصلت في ظرف عشر سنوات إلى أن تطرق أبواب الدولة البيزنطية الأكبر والأقوى والأعظم في تلك الفترة، هذا الفرق الهائل صنعته رحلة الإسراء إلى بيت المقدس والعروج من هناك إلى السماء. وحسبنا أن نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينفك يذكر هذه الرحلة دائماً ولا ينسى تلك الليلة طول حياته، فكان عليه الصلاة والسلام يحدث بما رأى ليلة الإسراء والمعراج كثيراً حتى وهو في المدينة المنورة بعد الهجرة، ونرى كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة التي كان يرويها عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بدليل روايتها من عبدالله بن عباس رضي الله عنه، وهو الذي كان صغيراً ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة وروى عنه كل ما رواه في آخر سنتين من حياته صلى الله عليه وسلم، وكذلك أبو هريرة الذي هاجر للمدينة متأخراً في السنة السابعة للهجرة، بل ووردت فيه بعض الروايات عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو الذي كان خادم النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة مذ كان صغيراً، وكذلك روايات السيدة عائشة رضي الله عنها في ما يتعلق بالإسراء وهي التي لم تكن زوجه في مكة بل دخل بها في المدينة صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر إنما يدل على أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم عن تلك الليلة استمر حتى نهاية حياته عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يشير إلى مدى تأثره عليه الصلاة والسلام بتلك الليلة وأحداثها، وهو أثرٌ كان النبي صلى الله عليه وسلم لأجله – بالتأكيد – يتذكر بيت المقدس على الدوام لأنها كانت المحطة الأبرز في طريقه بين الأرض والسماء، والموضع الأول الذي التقى فيه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.. فهي إذن محطة التغيير الكبرى في حياته عليه الصلاة والسلام، فلا غرو إذن أن يكون تأثيرها كبيراً عليه صلى الله عليه وسلم، ولا غرابةَ في أن يلتفت لها بعد فتح مكة مباشرةً ويعمل على ترتيب أمور فتحها كما بحث صاحب هذا الكتاب سابقاً.[23]

إذن فإبراهيم عليه السلام كان تغيير حياته في بيت المقدس.. ومحمد ﷺ كان تغيير حياته في بيت المقدس كذلك.

---

(23) هذا الموضوع كان موضوع أطروحة الدكتوراه لمؤلف هذا الكتاب، وقد تم نشره باللغة العربية في كتاب باسم (بيت المقدس في استراتيجية النبي صلى الله عليه وسلم) صدر عن الدار العربية للعلوم في بيروت عام 2014.

والأول جاء تفصيل قصته قبل بيت المقدس وبعدها في القرآن الكريم، والثاني جاء تفصيل قصته قبل بيت المقدس وبعدها في السنة الشريفة.. وهكذا نرى المصدرين الأساسيين لهذا الدين (أي القرآن والسنة) يثبتان هذه الحقيقة: أن بيت المقدس محور التغيير لأعظم نبيين عرفتهما البشرية، وبالتالي فهي لابد أن تكون محور التغيير للبشرية التي تنتسب للنبيين أو أحدهما، والأحرى أن تكون محور التغيير لهذه الأمة.

محور التغيير بين مكة وبيت المقدس:

إذا سلمنا أن بيت المقدس محور التغيير القادم لهذه الأمة كما وضحنا ضمن مفاهيم عديدةٍ كالبركة والإنسانية وغيرها، فإن سؤالاً يخطر في الذهن هنا: إذ كيف يعقل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم تحولت قبلته إلى مكة المكرمة بدل بيت المقدس؟ وحياته ومبعثه أصلاً في مكة لا في بيت المقدس؟

والجواب على ذلك بينه كثير من السلف كابن تيمية وابن كثير وغيرهما، فمكة كانت بدايةَ الأمر لهذه الأمة باعتبارها صرة الأرض ووسطها الجغرافي كما بينا في فصلٍ سابق، وأما بيت المقدس فإنها منتهى الأمر وغايته ونهايته، وهو ما تختصر صورته البصرية الفلسفية رحلة الإسراء والمعراج: فالبداية مكة والمنتهى بيت المقدس، وهناك تبلغ الرحلة ذروتها. وبالتالي فإن مكة كما كانت ابتداء أمر الإسلام باعتباره حضارةً عالمية بشرية متكاملة أول مرة، فإن ذلك بعد انتهاء المرة الأولى لابد أن ينتقل في مبعث هذه الحضارة للمرة الثانية إلى بيت المقدس، فتكون هذه البقعة هي التي ينطلق منها المبعث الثاني للحضارة الإسلامية ضمن مفهوم النهاية، أي الاستمرار كذلك إلى آخر الدهر وانتهاء الحياة على هذه الدنيا.

كما كانت بداية الخلق من مكة المكرمة باعتبار الكعبة أول بيت وضع للناس وأول ما خلق الله تعالى من الأرض، كان كل ما يتعلق بالأولية في هذا الدين منطلقاً منها: ومن ذلك بداية الإسلام وانطلاقته مع مبعث النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام. وكما كان البيت الثاني على الأرض هو البيت المقدس في الأرض المقدسة فإن كل ما يتعلق بالثانوية في هذا الدين ينطلق من بيت المقدس كذلك: ومن ذلك المبعث الثاني للأمة وحضارتها وعالميتها إلى آخر الدهر: ذاك للأول، وهذا للثاني.

فأما المبعث الثاني هنا كما بينا سابقاً فهو المبعث النهائي والأخير الذي يستمر حتى قيام الساعة، وهذا المفهوم تدور حوله عدة أحاديث نبوية شريفةٍ.

منها حديث: (الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)[24] الذي يفهم منه فكرة المبعث الثاني، وذلك باستدارة الزمان وعودته في دورةٍ جديدةٍ على البشرية، وهذه الاستدارة ستكون بالتأكيد أسرع من الاستدارة الأولى كمشهد الكتاب الذي يطوى، فتكون دوائره الثانية الداخلية أصغر من الأولى الخارجية، ثم يصل إلى نهايته، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: 104)، فدوائر الزمان مشهدها البصري كدوائر السماء حين يطويها الله عز وجل كطي السجل للكتب كشكل الورقة التي تلفها حول نفسها، وهذا المشهد يمكن من خلاله أن نفهم صورة الزمان واستدارته التي يبينها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف، وهو من الأحاديث التي أشكلت في معناها على كثير من العلماء، ولعلها صورةٌ بصريةٌ لاستدارة الزمان استدارته الأخيرة كالكتاب الذي يطوى، فإذا كانت هذه الاستدارة كذلك فإنها تمثل دائرةً زمنيةً أصغر من الدائرة الكبرى الأولى الخارجية التي مشى عليها الزمان، فيمضي الزمان الآن في نفس الصورة تقريباً وإن بشكلٍ أسرع نحو خاتمة الكتاب ونهايته. وهذا تمثيل بصري فلسفي لفكرة النماذج التاريخية الزمنية التي تحدثنا عنها في فصلٍ سابقٍ من هذا الكتاب. فقد استدار الزمان الآن استدارته الأخيرة التي يكون فيها المبعث الثاني والأخير لهذه الأمة. وهذه الدائرة الزمنية الثانية مقرها وعملها في بيت المقدس لأنه البيت الثاني.[25]

وكذلك يتبين مثل هذا المفهوم في قوله عليه الصلاة والسلام: (بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام)[26]. وهذا الحديث من الشواهد الكبرى لما

---

(24) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في سبع أرضين. انظر: صحيح البخاري: ج.4، ص.107

(25) تجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة الدوائر الزمانية ليست جديدة، فهي التي استخدمها ابن برّجان في دراسته لسورة الروم في وقت الحروب الصليبية، وتمكن من خلال ذلك إلى الوصول إلى الوقت المتوقع (ضمن قوانين الزمان) لهزيمة الصليبيين في بيت المقدس، وهو رجب من العام 583هـ، وقد كان الأمر على ما قال رحمه الله، إلا أنه كان قد توفي، قبل ذلك، وحمل هذا الأمر تلميذه القاضي محيي الدين بن زكي الدين، الذي تمسك بهذه الدراسة وفهمها وقال من خلالها مادحاً السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب يوم دخوله مدينة حلب: (وفتحكم حلب الشهباء في صفرٍ .. مبشّرٌ بفتوح القدس في رجبِ)، فكافأه السلطان صلاح الدين بأن جعله يخطب خطبة الفتح في أول جمعةٍ بعد الفتح، وقد ذكرت الكثير من الكتب أن الناس استفسروا منه عن هذا البيت بعد ذلك، فقال لهم إنه

أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ في أول سورة الروم، وشرح لهم ذلك في حساب طويل، ولا أراه إلا نفس حساب الدوائر الذي أخذه عن شيخه ابن برّجان رحمه الله. انظر: ابن برّجان، عبدالسلام بن عبدالرحمن بن محمد. تفسير ابن برّجان. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية. 2013. ج.4، ص.323-325

(26) مسند أحمد بن حنبل / مسند العشرة المبشرين بالجنة / مسند الانصار / حديث أبي الدرداء. انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج.36، ص.62

نتكلم عنه هنا، فالحديث روي عن أبي الدرداء في مسند ابن حنبل وعن عبدالله بن عمرو بن العاص في المستدرك على الصحيحين، وبالتالي فهو حديث مدني قاله النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. فمفهوم الحديث إذن يكون أن عمود الكتاب انتزع من المدينة المنورة وعمد به إلى الشام، ثم يستخلص النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك نتيجةً مفادها أن الإيمان حين الفتن بالشام.

مفهوم هذا القول أن عمود الكتاب الذي كان في المدينة المنورة هو قيامة الإسلام، لأن عمود الأمر عند العرب في ذلك العهد كان يشير إلى ما يقوم عليه الأمر كله، وذلك من مفهوم عمود الخيمة، فإذا علمنا أن الإسلام انطلق المرة الأولى في شكله الحضاري المدني إلى العالم من المدينة المنورة التي شكلت المجتمع المسلم الذي انطلق ليفتح العالم ويجوب الأرض ابتداءً من فتح بيت المقدس أصلاً، فإن معنى الحديث ينسحب على أن عودة نفس المجتمع الأول المسلم الذي سينطلق إلى العالم ويجوب الأرض سيكون هذه المرة من الشام ومركزها وأصل قدسيتها: بيت المقدس. ويمكن أن نربط هنا بين هذا المفهوم ومفهوم: (خلافة على منهاج النبوة) الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في تصنيفه للأحداث في الحديث المشهور: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت)[27].

هذا الحديث الخطير يبين تلك النقطة التي قدمنا بها في السطور السابقة حول فكرة الدائرة واستدارة الزمان، فالأمر يعود ويستدير إلى النقطة الأولى التي لايجوز أن تكون النبوة لأنها الخاتمة، بل إلى الخلافة التي على منهاج النبوة، وهذا الأمر بدأ من المدينة المنورة أول مرة، حتى إذا كانت المرة الثانية النهائية كان الأمر نفسه ولكن هذه المرة في الشام، وبالتحديد في بيت المقدس، ويشهد لهذه النقطة الأخيرة قوله عليه الصلاة والسلام لابن حوالة: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، الساعة يومئذ أقرب للناس من يدي هذه من رأسك)[28].

(27) مسند أحمد بن حنبل: مسند العشرة المبشرين بالجنة / أول مسند الكوفيين / حديث النعمان بن بشير. انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج.30، ص.355

(28) مسند أحمد بن حنبل: تتمة مسند الأنصار/ حديث عبدالله بن حوالة. انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج.37، ص.151

وهذا يؤكد حقيقةً أن انتقال الأمر وقيادة الأمة التي عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بعمود الكتاب ستنتقل من المدينة المنورة التي كانت محط القيادة الأولى إلى بيت المقدس التي ستكون محط القيادة الثانية للأمة، وهذه القيادة ستكون الأخيرة، إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم سكت بعد ذلك ولم يبين لهذا الأمر شكلاً آخر غير (خلافة على منهاج النبوة). كما أنه عندما ذكر انتقال الأمر إلى بيت المقدس بين أن هذا سيكون قريباً للساعة في حديث ابن حوالة. وهذا الأمر هو نفسه ما يتساوق تماماً مع مفهوم الحديث الأول في قوله عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام)، فمفهوم الإيمان هنا بالتأكيد ليس الإيمان مقابل الكفر عموماً. بل هو نفس الإيمان الذي كان بالمدينة النبوية الشريفة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يجعل من الحسن القول إنه يشير إلى الإيمان بمعنى الفهم الصحيح العملي للدين الإسلامي المبني على قول وفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وليس مفهوم الإسلام مقابل الكفر. وهذا الأمر كان موجوداً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فالإيمان بمعنى الفهم كان في المدينة المنورة، وخارج المدينة كان الأمر يختلف من مكانٍ لآخر ولكنه ليس كالفهم في المدينة، ولعل هذا المعنى أحد المعاني التي تشير لها الآية الكريمة عن الأعراب (وهو اللقب الذي كان يطلق في ذلك الوقت على بعض أهل البادية خارج المدينة ومن اتصف بصفات الجلافة عموماً): ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ (الحجرات: 14)، ولا خلاف أن سورة الحجرات إنما نزلت في بني تميم الأعراب الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وهذا يدل إذن على أن الفهم الصحيح لهذا الدين بمعناه القيادي الذي كان بالمدينة المنورة هو الذي انتقل إلى الشام، وبالتالي فإن قيادة الأمة ستكون لاشك في الشام، وهو ما يبين لنا عظيم خطر تلك الأرض وأساسها بيت المقدس، فهي قيادة الأمة، وهي عمود الإسلام الآن، ومنها يكون المبعث الحضاري الثاني ضمن دائرة الحضارة والزمان التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم حتى النهاية، وهذه هي خطورة بيت المقدس في مستقبل هذه الأمة.

الفصل الخامس
المفاهيم النظرية لكيفية التعامل مع بيت المقدس

من يملك الحق في بيت المقدس؟

لعل هذا السؤال هو أكثر الأسئلة إثارة للجدل والنقاش على مستوى العالم عندما يتعلق الأمر ببيت المقدس، والواقع أن السؤال في ذاته مشكل، وذلك لوجوب التفريق في مسألة الحق بين حقين: الحق الديني وحق السيادة. فأما الحق الديني، فإنه يعني الحق في تقديس بقعةٍ معينةٍ والتعبد فيها واعتبارها ذات دلالةٍ روحية للشخص أو الجماعة التي تتبع ديانة محددة، وهذا كاعتبار الكعبة مقدسةً عند المسلمين، واعتبار نهر الجانج مقدساً لدى الهندوس، وغير ذلك من المواقع التي اختارها أصحاب الديانات المختلفة، أو اختارتها معتقداتهم ليكون لها قدسية من نوعٍ معين. وأما حق السيادة، فهو الحق في ممارسة القوة المطلقة غير المقيدة لحكم منطقةٍ معينةٍ وتقرير مصيرها وتقرير من يحق له الوجود فيها أو دخولها، وهو بالتالي مفهوم سياسي له تطبيقات عملية مباشرة على الأرض، وإن كان يمكن أن يتخذ طابعاً دينياً باسم السيادة الدينية، التي تأخذ مسارها وأصلها من الحق الديني أساساً. وينبني عليها ممارسة القوة المطلقة في تحديد كيفية التعامل مع هذه المنطقة المقدسة وإقرار من له حق الدخول إليها وممارسة الشعائر فيها.

ولدى تطبيق هذا التقسيم على بيت المقدس فإن من الضروري التفريق بين الحق في اعتبار بيت المقدس موقعاً مقدساً من جهة، والحق في ممارسة القوة عليه وتقرير مصيره عملياً.

الحق الديني في القدس:

لا شك أن الديانات الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسـلام، كلها اعتبرت القدس منطقةً ذات أهمية دينية خاصة لدى أتباع هذه الديانات الثلاثة. فاليهودية تعتبر القدس مركزها الروحي وقِبلتها في الصلاة ومركزَ تحقق الرابط بين إبراهيم وربه وتحقيق هذا العهد له، الذي تَمَثَّل في محاولة إبراهيم ذبح ابنه إسحق (كما ترى اليهودية) فيها، وموضع ظهور قوة الرب وسيطرته على العالم وتمجيده من قبل شعبه كما يرى أتباع هذه الديانة. وأما المسيحية فإنها تعتبر القدس موضع تحقق رسالة المسيح بفداء البشر،

وبالتالي تحقيق العهد الإلهي إلى البشر بتقديم الفداء عنهم في المرة الثانية كما كان الفداء الأول على يد إبراهيم. وهي موضع ظهور قوة المسيح وتحقيق معجزته وسلطانه على الناس. وقد قدمنا في هذا الكتاب الكلام على موقع بيت المقدس في الإسلام وخطورة مكانتها الدينية والحضارية باعتبار الإسلام لا يقتصر على الشعائر التعبدية والروحانيات بل يتجاوز ذلك أيضاً إلى أسلوب الحياة وصناعة الحضارة الإنسانية التي تحقق مفهوم الاستخلاف في الأرض، الذي هو أصل مهمة البشر في الأرض كما بين القرآن الكريم في بدايته في سورة البقرة.

ويمكن من هذا الملاحظة أن تقديس كل ديانة لهذه البقعة يختلف شكلاً عن الآخر، فمنها ما يقصر هذا التقديس على الناحية الروحانية الغيبية، ومنها ما يأخذ الأمر إلى أبعاد أكثر تتعلق بالمستقبل البشري، ومنها ما يتجاوز ذلك إلى الترجمة الإنسانية لهذه المكانة الروحانية، وكل هذا يندرج تحت فكرة الحق الديني المتعلق أساساً بالتقديس والتعبد حسب فهم كل ديانة لفكرة القدسية والعبادة.

وفيما يتعلق بتناول الإسلام لطبيعة الحق الديني لكل مجموعةٍ دينية بشرية يجب التأكيد أن الإسلام كفل هذا الحق ابتداءً من قول الله عز وجل: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256)، ومن المفارقة أن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة وردت في سورة البقرة وهي الثانية في ترتيب المصحف، فهي إذن آية متقدمة جداً في ترتيب آيات القرآن الكريم، ولذلك فلها أهمية كبرى في تأسيس فكرةٍ ينبني عليها الإسلام وهي: كفالة الحق للمرء في اختيار دينه، وبالتالي اختيار مقدَّسه. وعلى ذلك فالإسلام لا يرفض فكرة تقديس النصارى المسيحيين واليهود هذه الأرض، بل يترك لهم حرية العبادة فيها بنص القرآن الكريم. وللمسيحي كما لليهودي اعتبار القدس مكاناً مقدساً ورفع هذه الأرض في دينه إلى المصاف التي يريدها عندما يتعلق الأمر بالروحانيات والإلهيات. على أن الاختلاف هنا يقع في مسألة حق السيادة التي يرجعها الكثيرون إلى الحق الديني.

حق السيادة على القدس:

قدمنا أن الحق الديني مكفول لجميع البشر في القدس، فليس من العدل أن يُمنَعَ امرُؤٌ من تقديس هذه البقعة الشريفة واعتبارها ذات مكانةٍ دينية مهمة لدينه. ولكن الخلاف يقع في العادة عند ربط هذا الحق الديني بالممارسة على الأرض فيما نسميه «السيادة» على هذه البقعة كما تقدم، فهل امتلاك الحق الديني يعطي المرء حق السيادة تلقائياً؟

إن الحق الديني حق شخصي يتعلق بشخص المرء وروحه وعقيدته وإيمانه، أما حق السيادة فلا يتعلق بالمرء بل بالمجموع، أي أنه يتعلق بالآخر وكيفية تعاملك معه. فسيادتك على أرضٍ معينةٍ لن يكون أثرها مقصوراً عليك بل متعدياً إلى كل من له صلةٌ بهذه الأرض. ولهذا فإن تقرير مدى امتلاك أي أمةٍ حقَّ السيادة على بيت المقدس يرتبط فعلياً بدراسة مدى تأثير سيادة هذه الأمة على هذه الأرض على باقي الأمم وحفظ حقوقهم الدينية فيها. وهنا يأتي دور التاريخ ليحاكِمَ الأمم التي حكمت هذه الأرض المقدسة. فالقدس تكاد تكون الوحيدةَ على وجه الأرض التي لم يكد يبقى من القوى العالمية واحدةٌ إلا حكمتها ومارست عليها السيادة، لأنها أرض الإنسانية التي تترجم فيها المفاهيم الإنسانية لدى كل أمة واقعاً عملياً له أثره، وهو ما يفسر غِنى تاريخها الطويل وتنوعه.

وهنا نعود إلى ما ذكرناه في الفصل الأول من هذا الكتاب حول موضوع الأنانية التي ميزت تعامل الأمم مع بيت المقدس تبعاً لطبيعة هذه الأرض ضمن مفهوم الجمال والبركة وأثرها. فهذه الأنانية نتج عنها استبعاد كلَّ مجموعةٍ مَن كان قبلها إما بالإخراج أو الاضطهاد. فبنو إسرائيل اضطهدوا أهل هذه الأرض الأصليين (الكنعانيين) بعد وفاة نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، والآشوريون أخرجوا بني إسرائيل، واضطهدوا الكنعانيين سكان الأرض الأصليين، والفرس أخرجوا الآشوريين، واليونان أخرجوا الفرس، والرومان أخرجوا اليونان، واليهود فيها اضطهدوا النصارى من أهلها، والبيزنطيون المسيحيون اضطهدوا اليهود وأخرجوهم، والصليبيون المسيحيون الكاثوليك اضطهدوا المسلمين واليهود على حد سواء وأخرجوا منها الطرفين، بل واضطهدوا المسيحيين الشرقيين من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، واليهود اليوم اضطهدوا المسيحيين والمسلمين وأخرجوهم منها. والاستثناء في هذه المعادلة هم مجموعةٌ من الذين دخلوا هذه الأرض ولم يضطهدوا سكانها الأصليين أو الموجودين فيها أو المقدِّسين لها، والاستثناءات هنا تنسحب على كل من داود النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا نقبل ما قاله فيه اليهود في توراتهم من نقائص بشريةٍ إذ لا يعتبرونه نبياً، والأمة المسلمة في أغلب عهدها في هذه الأرض، والملك الألماني فريدريك الثاني الذي حكم هذه البقعة خلال الحروب الصليبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي. فهذه النماذج الثلاثة يمكن أن تعتبر نماذج للأخذ بالمنظور الجامع لهذه البقعة وممارسة السيادة مع إعطاء الحق لأهل هذه الأرض أو من يقدسها بممارسة شعائرهم فيها، كل مثال من هذه الأمثلة كان من أبناء ديانةٍ من الديانات الثلاث (باعتبار داود عليه الصلاة والسلام من أنبياء بني إسرائيل أصلاً، وإن لم يكن على الديانة اليهودية التي نعرفها اليوم).

لكن عند تتبع هذه الأمثلة، نجد أن مثالين اثنين منهما يعتبر كل واحد منهما حالةً خاصةً ضمن إطار عامٍّ مخالف لهما، بينما المثال الثالث يعتبر حالةً عامةً خالفتها بعض الحالات الخاصة. ففي حالة نبي الله داود عليه الصلاة والسلام الذي بين لنا القرآن الكريم مدى رحمته وعدله، ومن بعده سليمان عليه الصلاة والسلام بحكمته وعدله، كان هذان النبيان الكريمان حالتين خاصتين في فترةٍ طويلةٍ لحكم بني إسرائيل أبناء الديانة اليهودية، الذين كانوا على مر التاريخ في الفترات المتقطعة التي امتلكوا فيها السيادة على هذه الأرض يستبعدون مخالفيهم في الديانة ولا يقبلون وجودهم أو إعطاءهم الحق الديني في هذه الأرض، وهذا ما ينطبق على واقعهم اليوم أيضاً إذ يمتلكون اليوم السيادة على هذه الأرض ويمنعون غيرهم من أبناء الديانتين الأخريين: الإسلام والمسيحية، من ممارسة شعائرهم بحرية إما بالاضطهاد أو الإخراج. وأما الملك فريدريك الثاني، فإنه كان حالةً خاصةً غريبةً في تعاملها المنفتح مع أبناء الديانتين: الإسلام واليهودية عن من سبقه من ملوك الفرنجة الصليبيين الذين سجلت كتب التاريخ ما ارتكبوه من فظائع بالمسلمين واليهود في الأرض المقدسة، والعجيب أن البابوية في روما لم تعترف أصلاً بفريدريك ملكاً على القدس، وكانت تعتبره خارجاً عنها لخلافه الشديد مع البابا. أما في حالة الأمة المسلمة، فيمكن ملاحظة فرقٍ جوهري بين تجربتها والتجربتين المذكورتين أعلاه. فالأمة المسلمة لم يكن الأصل في سيادتها استبعاد الآخر من الأرض المقدسة، بل كان الأصل هو قبول الآخر وبقاؤه في هذه الأرض وكفالة حقه الديني فيها، إلا في حالات اضطهاد خاصةٍ كتلك التي قام بها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فالاستثناء في الحالة الإسلامية كان الأصلَ في الحالتين الأخريين.

ويمكن قياس هذا الأمر بسهولةٍ مع مراجعة كيفية ردة فعل البشر المقيمين في هذه الأرض ومن يقدسها من زوارها على سيادة كل فريقٍ عليها، فالسيادة إن كانت مقرونةً بالاستبعاد فإن طبيعة البشر تقتضي مقاومةَ هذه السيادة[29]، وهذا يعني أن ممارسة هذه السيادة ليس مقبولاً على أهل هذه البقعة ومُقَدِّسيها، وهو ما ينزع حق السيادة من الأمة التي يرفضها باقي البشر في هذه البقعة لأنها أخلَّت بواحد من أهم السمات التي يقبلها البشر ويرضونها وهو العدل المفضي إلى الأمن. أما في حال عدم وجود مقاومةٍ لهذه السيادة على مر زمانها فإن ذلك يشير إلى قبول المجموع بهذه السيادة ورضاه بها، وهو ما يمنحه حق السيادة فتصبح حقاً مكتسباً من مجموع البشر باعتبار هذه الأرض ممثلةَ البشرية.

(29) نبهني إلى نقطة المقاومة هذه في التاريخ د. خالد العويسي خلال نقاشٍ علمي يوماً ما عام 2007

بين مكة والمدينة وبيت المقدس في مفهوم العالمية والحُرْمة:

ضمن هذا المفهوم يمكن استيعاب قضية الاستبعاد والجمع في مكة المكرمة والمدينة المنورة ومقارنتها ببيت المقدس، فالمسجد الحرام ممنوع على المشركين بحكم قرآني في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ (التوبة: 28)، وبما أن الكلام في الآية الكريمة كان عن المسجد الحرام، فإنه عُمِّمَ على مكة كلها بل وحدود الحرم المكي كما قال كثير من العلماء، لأن القرآن الكريم سمى مكة (المسجد الحرام) في آية الإسراء ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد أسري به من المسجد نفسه أو الكعبة وإنما من بيته في مكة. وبناءً على هذا الفهم نجد نفس الحكم انطبقَ في رأي عدد لا بأس به من العلماء على المدينة المنورة، إذ إنها كلها حرمٌ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المدينة حرم ما بين عير إلى ثور..)[30]. ويقصر دخول هاتين المنطقتين على المسلمين كما يرى عدد من العلماء قديماً وحديثاً. وهذا لا يتعارض مع مسألة الحق الديني، إذ إن اليهود والمسيحيين لا يقدسون مكة ولا المدينة، وبالتالي فإن المنع من دخولها أو التعبد فيها لا يعني المس بحقٍّ دينيٍّ لهم فيها لانتفاء وجود هذا الحق أصلاً.

أما بيت المقدس، فالأمر فيها مختلف، فهي موضعُ قدسيةٍ خاصة لدى المسلمين واليهود والمسيحيين على حد سواء، وبالتالي فإن الاستبعاد فيها يعد انتهاكاً للحق الديني فيها، ولعل هذا السبب في عدم جعل هذه البقعة حرماً في الإسلام كما ذكرنا سابقاً، فكونها حرماً قد يطلق بعض الآراء التي تسحب فكرة المنع من دخول الحرم على هذه البقعة بادعاء حرمتها، وهذا ما لا ينطبق هنا لمخالفته قواعد الإسلام في العدل، وبالتالي نستطيع أن نرى التناسق في أحكام الإسلام المتعلقة بهذه البقعة سواء من الناحية الشرعية أو الناحية الروحية أو الناحية الفلسفية.

العدل أساس السيادة:

العدل مفهومٌ يقتضي إعطاءَ كل ذي حقٍّ حقه، وهو أساس حياة البشر على الأرض وأصل راحتهم، فمن طبيعة الإنسان أن يشعر بالراحة حين يأخذ حقه وإن كان أقل من غيره، ولا جدال في أن العدل هو المطلوب لا المساواة، فالمساواة قد تقتضي الظلم، إذ كيف تعطي من يعمل قليلاً مثل من يعمل كثيراً؟ أما العدل فإنه يعني أن يأخذ كل امرئٍ ما يستحق من المكافأة حسب جهده أو إعطاء كل شخص ما يفي باحتياجاته. وبهذا ينتشر الرضا بين الناس، وأما من قصّر فلم يأخذ ما يرغب فيه من مكافأة فيكون هو المَلُوم في التقصير. ومقتضى العدل أن يشعر المرء بإنسانيته واحترام ذاته، إذ إن العدل يقتضي أن يأخذ المرء حقه ممن اعتدى عليه سواء كان هذا المعتدي كبيراً أم صغيراً، قوياً أم ضعيفاً.

(30) صحيح مسلم: كتاب الحج / باب فضل المدينة ودعاء النبي. انظر: صحيح مسلم. ج.1، ص.994

وهذا عين الإنسانية واحترام البشر وتقدير الذات. وهو مفهوم لا يقتصر على الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم وصف النجاشي أصحمةَ ملكَ الحبشة - وكان نصرانياً - فقال: (اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلَم عنده أحدٌ). ولكن العدل في حالة الإسلام أولى وأكبر، لأن شريعة الإسلام تختلف عن باقي الشرائع في أنها اعتمدت العدلَ أساساً للملك والحكم بين البشر، أما الديانات الأخرى ففي الغالب تراها في نصوصها المقدسة تُغَلِّبُ أتباعها بالتمجيدِ والتكريم لمجرد التصاقهم بهذه الديانة. وهذا مختلف عن الإسلام، فالقرآن الكريم يطلب من أتباع هذا الدين الحكم بالعدل بين الناس جميعاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النساء: 58)، وهو الدين الوحيد الذي يتوعد الظالمَ مسلماً كان أم غيرَ مسلم. وهو الذي دعا ابن تيمية إلى القول: (ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام)[31]. فالأمر في الإسلام مدارُه على العدل. ولهذا فإن من مقتضيات حكم الإسلام لهذه الأرض أن يحكمها بالعدل بإعطاء كل ذي حقٍّ حقه، وهذا ينسحب بالتأكيد على الحق الديني باعتباره الحقَّ المقدَّمَ في هذه الأرض المقدسة، وإلا كان قانون الاستبدال - القائم على فكرة التدافع - هو الحل، وهو لا ينسحب على غير المسلمين فقط، بل ينسحب على المسلمين ممن لم يتقنوا هذا الفن.

فإذا عدنا إلى المعنى الأساسي الذي يشكِّل شخصية هذه الأرض؛ أي البركة، فإن من مضمون المعنى أن تتحصلَ البركةُ مع العدل، فيكون من أثرها الانتشار في الأرض. فما دامت بركة هذه الأرض تتعدى الإقليم إلى العالم، فإن مقتضى هذه البركة أن ينتشر أثر العدلِ فيها - كما الظلم أيضاً - إلى العالَم كله، ويشعر به العالَمون جميعاً لا المسلمون أو غيرهم فقط. كما أن المعنى الإنساني الشامل لطبيعة هذه الأرض كما قدمنا في الفصول السابقة يجعل من المُحَتَّمِ أن يكون لمعنى العدلِ فيها بُعدٌ إنسانيٌ شاملٌ يتجاوز العدلَ مع سكانها إلى العدل مع كل من يقدِّسُها مهما ابتعدَ عنها. وبذلك تجتمع معاني الإنسانية والانتشار والبركة والعدل في كل مكان في الأرض. ويكون مقتضى ذلك الشعور بالأمن. وذلك هو غاية المقصود الذي يحقق معنى الاستخلاف بالتعبد مع وجود الأمان.. والآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى الجليل فتقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (النور: 55). فالاستخلاف والتعبد وعمارة الأرض كلها تحتاج الأمن، والأمن يحتاج العدل، وهذه المعاني كلها وعلى رأسها العدل تحتاج أثر البركة لتنتشر للعالم، فيكون هذا معنى عالمية هذا الدين، وبذلك تبنى النهضة والحضارة المادية والقيمية التي تحقق مفهوم الإنسانية، وهذا كله ينطلق من بيت المقدس أرضِ الإنسانية، وأرضِ البركة.

(31) ابن تيمية. مجموع الفتاوى. ج.28، ص.146.

خاتمة

ما دامت الفكرة الأساسية وراء خلق الإنسان هي الاستخلاف في الأرض، والقيام بواجب العبادة لله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يحتاج إلى أدوات، والأدوات تأتي على شكل قواعد ومفاهيم تسير عليها البشرية، وهي تحتاج لتطبيقها مواطنَ من الأرض تكون مسرحاً لهذا العمل ومختبراً للتجارب، ويكون أثر ونتيجة هذه التجارب منعكساً منها إلى ما جاورها ثم إلى العالَم كله سواءً بسواء. وهذا كله ما تمثله بيت المقدس.

فهذه الأرض جعل الله عز وجل فيها مسرح التجربة الإنسانية التي تنعكس نجاحاً أو فشلاً على باقي بقاع العالم. وجعلها الله تعالى البوتقة التي يجب أن تنصهر فيها المعاني التي تساعد الإنسان على القيام بواجبه في عبادة الاستخلاف. وتلك المعاني تترتب ضمن منظومةٍ متكاملةٍ دقيقةٍ لا يُخَلُّ بإحداها حتى تنهار البقية، فتضيع الإنسانية في تيهٍ طويلٍ ولا تقوم بواجبها، ويكون أثر ذلك واضحاً في تراجع الإنسان وفساد الأرض وإن أعمرها البعض ظاهراً بالبناء. فالبناء إن لم يكن له ما يسنده من القيم الإنسانية كان وبالاً على باقي المخلوقات على هذه الأرض، وتحول الإنسان من قائدٍ لهذه الأرضِ يعمل على عمرانها وأمان مخلوقاتها إلى عاملِ هدمٍ وخرابٍ لهذا الكوكب كله.

وبيت المقدس تتمثل فيها المعاني الإنسانية المجتمعية المتكاملة، فهي لا تعني المرء بشخصه في فهمه وإيمانه فقط، وإنما تمثل المجموع والأمة والبشرية على الدوام في أغلب مفاهيمها. وهذا ما يجعلها مختلفةً - ولكن متكاملةً - مع منظومة مكة والمدينة اللتين تتناولان الإنسان الفرد في علاقته الخاصة بالله عز وجل، وعلاقته الخاصة بالمرشد الأول في طريق الاستخلاف، رسولِ الله محمدٍ صلى الله عليه وسلم. فالإنسان الفرد يبدأ ببناء إيمانه الفردي وعلاقته الخاصة بالله عز وجل بما تمثله مكة المكرمة، ويهتدي للطريق الإيماني الخاص، والإنساني الحضاري العام من خلال علاقته بقائد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ينطلق كل فردٍ ليرتبط مع الآخر في المنظومةِ الإسلامية لتطبيق التعاليم التي تعلمها من علاقته الخاصة بالله عز وجل، والتي يمثلها من أساسيات هذا الدينِ القرآنُ الكريمُ، ومن الأرضِ مكةُ المكرمة. والتي تعلمَها من علاقته برسول الله ﷺ، التي تُمَثِّلُها من أساسيات هذا الدينِ السنةُ النبويةُ الشريفةُ، ومن الأرضِ المدينةُ المنورة.

ينطلق الفرد مع الفرد ضمن هذه المفاهيم مشكلاً الأمة بمجموعها، ليطبق هذه المفاهيم بشكلها الجماعي البشري لا الفردي، فيكون المنطلق لطبيق هذه المفاهيم الإنسانية الجماعية بيتُ المقدس.

ولهذا تكون بيت المقدس المكان الذي يجب أن يعيش البشر فيه معاني التسامح والعدل، ويتمتعون في ذلك بأرضٍ مهيأة بالكامل لهذه المهمة، فهي أرض تجمع بين الدنيا والآخرة، ومعنى الجمال فيها أساسي في تقريب البشر منها، والمفهوم الأساسي الذي يميزها هو البركة التي تنتج الانتشار، فمهما طبق البشر في هذه الأرض من مفاهيمَ تكون هي الأصل الذي ينتشر في باقي عالمهم. فإذا أحسنوا في هذه الأرض ونشروا العدلَ والتسامح، كان لباقي العالم كل هذا المعنى كذلك سواءً بهذه الأرض. أما إن لم يحسنوا الاختبار في هذه الأرض ولم يقوموا بما عليهم من نشر العدل بينهم، كان نصيب ذلك أيضاً الانتشار إلى الأرض كلها وعموم الفساد في الأرض.

وهي منطلق الحضارة الإنسانية لأجل هذه المعاني، فبداية الحضارة المادية ينبغي أن تنطلق من هذه الأرض لأنها هي الموطن الذي يمثل البشرية بكل معانيها، فإذا بدأت الحضارة من بيت المقدس انتشرت إلى العالم كله لتصبح الأمة التي تصنع حضارتها المادية ابتداءً من امتلاك بيت المقدس بعد تطبيق القيم التي تبنى عليها الحضارة أمةً في مقدمةِ العالم كله. وتكون هي القوة العالمية الأولى التي يصل تأثيرها إلى البشرية كلها.

كل هذه المفاهيم والمعاني تنبع من بيت المقدس لأن الله عز وجل قد اختارها لذلك، ولأنها في موضع القلب من العالم كله، ولهذا فإن من يفهم هذه النصوص ويطبقها في هذه الأرض في طريق الانبعاث الثاني لحضارة هذه الأمة لاشك أنه سيكون في مصاف القوم الذين اصطفاهم الله تعالى لبناء هذا النموذج الحضاري أول مرةٍ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يوضح خطر هذه البقعة، وخطر العمل لأجلها، فهي اليوم بمثابة المدينة المنورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجيلها اليوم هو المجدد للجيل الأول. ولكن الفرق أن هذا الانبعاث هذه المرة سيكون الانبعاث المستمر إلى قيام الساعة وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فطوبى لمن اختار هذا الطريق.. وطوبى لمن اختاره الله تعالى لهذا الأمر الجلل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

المطبوعة:

- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية. 1312هـ
- ابن برّجان، عبدالسلام بن عبدالرحمن بن محمد. تفسير ابن برّجان. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية. 2013
- ابن تيمية، محمد. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد القاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. 2004
- ابن حنبل، أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة. 2001
- ابن المرجى، أبو المعالي المشرف. فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام. تحقيق: عوفر ليفنه-كفري. شفا عمرو: دار المشرق. 1995
- ابن منظور. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي. الطبعة الثالثة. 1999
- أبو داود السجستاني. سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. بيروت: المكتبة العصرية. د.ت
- الأشقر، أسامة جمعة. البركة مقوماتها ومنازلها بين مكة وبيت المقدس. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2015
- الرازي، أحمد بن فارس القزويني. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. دمشق: دار الفكر. 1979
- الشافعي، محمد بن إدريس. كتاب الأم. تحقيق: رفعت فوزي عبدالمطلب. المنصورة: دار الوفاء. 2001
- العليمي، مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. تحقيق: محمود عودة الكعابنة. عمان: مكتبة دنديس. 1999
- عمر، عبدالله معروف. بيت المقدس في استراتيجية النبي صلى الله عليه وسلم. بيروت: الدار العربية للعلوم. 2014
- عمر، عبدالله معروف. بيت المقدس والنبوءة القرآنية الأولى. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2016
- عمر، عبدالله معروف. المدخل إلى دراسات بيت المقدس. عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع. 2017
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1991
- قطب، سيد. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق. 1412هـ
- المرصفي، سعد. الكعبة مركز العالم. الكويت: مكتبة المنار الإسلامية. 1998
- مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. بيروت: دار الكتب العلمية. 1991

الإلكترونية:

- كمال الدين، حسين. «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة وتعيين اتجاه القبلة». مجلة البحوث الإسلامية. العدد الثاني. الإصدار: شوال-ربيع الأول 1395-1396هـ.
http://www.alifta.net/Fatawa/FatawaDetails.aspx?languagename=ar&View=Tree&NodeID=341&PageNo=1&BookID=2
شوهد بتاريخ 2017/10/16م
- المعجم المفهرس بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:
http://www.qurancomplex.org/idindex/default.asp?harf=2&l=arb&job=wordlist&Page=17&word=%C8%C7%D1%DF&button1=
شوهد بتاريخ 201/4/14

الفهرس

ماذا خسر المسلمون بسقوط بيت المقدس؟

دراسة في فلسفة قضية القدس

الدكتور
عبد الله معروف عمر



هذا الكتاب

بيت المقدس..

أرض كانت ولا زالت وستبقى تجتذب الأمم المختلفة نحوها، حباً أو طمعاً، رغم أنها ليست أخصب بلاد الأرض ولا أغناها بالثروات، على الأقل من الناحية الظاهرية..

فلماذا يقتتل عليها البشر؟

وما هو السر الذي جعل هذه الأرض تشغل هذا الحيز من تفكير أبناء آدم، وتشعل فيهم هذه الجذوة؟

هذا الكتاب محاولة لإجابة هذا السؤال..

وهو محاولة لفهم ماذا خسرنا، بل ماذا خسر العالم كله، بضياع بيت المقدس من أيدي أبناء هذه الأمة المسلمة، وهو دعوة لاستشعار خطورة العمل في فكرة استعادتها وتثبيت السيادة عليها، ودور ذلك في الانطلاق العالمي الذي يعمل له كل مسلم غيور على هذا الدين.. ولعل الله تعالى يجعل هذا الكتاب خطوةً مهمةً على طريق تحويل ردّ الفعل إلى فعلٍ مدروس في كل ما يتعلق بهذه الأرض المقدسة، ولَبنةً أساسيةً في بناء حضارة أمتنا الثاني وبعثها من جديد..

ISBN 978-9957640125

9 789957 640125



عمان - العبدلي - هاتف 5607386 6 962+
فاكس 5653470 6 962+ خلوي 95208684 7 962+
Email:alfursan111@yahoo.com